GHAZI AL-GOSAIBI

رواية
NOVEL

غازي عبد الرحمن القصيبي

سعادة السفير

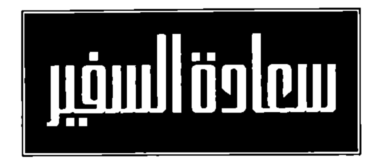


رواية
NOVEL

غازي عبد الرحمن القصيبي

سعادة السفير




سعادة السفير

سعادة السفير / رواية عربيّة
غازي عبد الرحمن القصيبي / مؤلّف من السعوديّة
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب : ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي :موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali@nets.com.jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
ستيتي سيي ®
توليفة الغلاف :
زهير أبو شايب / الأردنّ
الصفّ الضوئيّ :
المؤسّسة العربيّة / الأردنّ
التنفيذ الطباعيّ :
المطابع المركزيّة ، عمّان ، الأردنّ

ISBN 9953-36-036-7

الاهداء

إلى «شهرزاد»

للقارئ أن يصّدق أن في هذه الرواية الخيالية شيئاً من الواقع . إلاّ انني أنصحه ألاّ يصّدق أيّ شيء يسمعه من الدبلوماسيين .

مـتى تَزُرْ قـومَ مَنْ تهـوْى زيارَتَهـا
لا يتحُفوكَ بغيرِ البيضِ . . والأَسَلِ

المتنبي

تتّوقف السيّارة «المرسيدس» المُصفّحة السوداء أمام مدخل السفراء . يترّجل الحارس الذي يجلس بقرب السائق ، ويفتح الباب الخلفي ، وينزل يوسف الفلكي . يدخل الحارس من الباب الدوّار الضيّق ، يتبعه يوسف . ترفع العجوز السوداء ، في المكتب الصغير الذي يواجه المدخل ، رأسها من جريدة «السَنْ» ، وتنظر إلى الرجلَيْن بتساؤل صامت . يقول الحارس :

- صباح الخير ! صاحب السعادة السيّد يوسف الفلكي . سفير الكوت . لديه موعد مع وزير الدولة السيّد مايكل وايت .

تفحص العجوز ورقة أمامها ، ثم تضغط على زر في التيليفون ، وتتحدث بصوت خافت ، وتقول للحارس :

-الدور الثاني . ستجدان من ينتظركما .

ظلّ يوسف ، الذي علمتّه عشرات الزيارات الاجراءات المتبعة ، واقفاً مكانه حتى خرجت العجوز من مكتبها ، وسلمتّه سلسلة في طرفها بطاقة كتب عليها بخط أحمر «زائر» ، وسّلمت الحارس سلسلة مماثلة . وضع كل من الرجلين السلسلة حول عنقه ، واتجهّا إلى المصعد . ابتسم يوسف ، كما يبتسم كل مرّة يطوّق فيها عنقه بالسلسلة ، متخيّلاً نفسه كلباً بشرياً يحمل اسمه على رقبته . ترى هل تعمّد واضع الإجراءات الأمنية هذا الإذلال الخفيّ؟ ثم ابتسم ، مرة ثانية . كيف تُترك سلامة هذا المبنى التاريخي العريق ، وزارة الخارجية والكومنولث ، في يد هذه العجوز الخرفة؟ يعرف يوسف تمام

المعرفة أن سلامة المبنى مسؤولية MI6 ، جهاز الاستخبارات الخارجية الذي يتبّع وزير الخارجية ، وMI5 ، جهاز الاستخبارات الداخلية الذي يتبع وزير الداخلية . ومع ذلك لا يملك إلاّ ان يستهجن موضة التخصيص التي تكل استقبال الضيوف إلى عجوز شبه أُميّه ، جاءت بها شركة تمكنت من تقديم العطاء الأرخص لأنها تقدم أقل المرتبات لأقل الموظفين والموظفات أهلية .

يتنهّد المصعد الأثري ، ويئنّ ، ويتنحنح ، ويتجّه ، بتردّد وتثاقل ، إلى الدور الثاني . يفتح الحارس باب المصعد ، ويجد يوسف سكرتيرة الوزير في انتظاره :

- السيد السفير : كيف حالك؟ صباح جميل .

- كاثي! شكراً ، أنا بخير . صباح جميل حقاً .

- أخشى ان الشمس لن تبقى معنا طويلاً .

- كاثي ! الم انصحك بعدم الإستماع إلى النشرات الجوّية؟

- الشمس لا تبقى طويلاً في لندن ، بصرف النظر عما تقوله النشرات الجوّية .

- كم اتمنى لو تتعلّم الشمس في بلادي هذه العادة ، خاصة في أغسطس .

ظل يوسف يمشي مع كاثي عبر الدهاليز القديمة الطويلة ، وهما يتحدثان عن الطقس ، حتى وصلا قاعة السفراء . اشارت كاثي إلى الباب المفتوح ، وقالت :

- تفضل ! الوزير يعتذر لأنه تأخر قليلاً في ١٠ داوننج ستريت . سأعود بعد دقائق لاصطحابك .

جلس يوسف على مقعد وثير في القاعة الشهيرة ، وجلس حارسه في ركن بعيد . قاعة السفراء! هنا ينتظر كبار الزوارّ ، وُتعقد المؤتمرات الصحفية ، وتؤخذ الصور التذكارية . مدخل السفراء! قاعة السفراء! سماعك بالمعيدي! مدخل السفراء لا يكاد يتسّع لشخص نحيل واحد . وقاعة السفراء غرفة متوسطة الحجم ، رمادية المقاعد ، كثيبة الألوان ، من الواضح لكل ذي عينيْن أنها أُثِّثت بمعرفة لجنة متعدّدة الأطراف والأذواق . لاحظ يوسف ان اللوحة الكبيرة التي تحتلّ الجدار الذي يواجه الداخل إلى القاعة قد تغيّرت . آه! وزير الخارجية الجديد . النقابي الاشتراكي المتطرف . كانت اللوحة القديمة تحمل بصمات «الراج» ، عهد السيطرة الاستعمارية في الهند ، وتمثلّ مشهد صيد . لم تعد اللوحة مقبولة سياسياً في نظر الوزير الجديد . ليس من المناسب تذكير الزوّار بعهود الاستعمار ، وبدور الارستقراطيين البريطانيين في استئصال النمور الهندية . اللوحة الجديدة محايدة سياسياً . قلعة في مكان ما ، يفترض يوسف أنه انجلترا أو اسكتلندا ، وأمامها المشهد الرعوى المألوف : الخضرة والأغنام والراعي . يشعر يوسف بحنين مفاجئ إلى اللوحة القديمة المليئة بالحركة ، بالأفيال والنمور والصيادّين والبنادق . يحسّ أنها قطعة نابضة من الدراما / الكوميديا التي تُسمّى التاريخ البشري . امّا

اللوحة الجديدة فأشبه ما تكون بمخطط هندسي . جدران القلعة مرسومة بالمسطرة ، والحشائش مهذّبة مشذّبة ليس فيها أعشاب مشاغبة ، والأغنام واقفة بكامل أناقتها وكأنها على وشك الدخول إلى مسابقة لجمال الأغنام في مهرجان ريفي . هذا ليس فناً . هذه اللوحة محاولة بائسة يائسة لحبس الطبيعة الحيّة في ورقة ميتة . على أن قاعة مظلمة كهذه القاعة تستحق لوحة محنطة كهذه اللوحة . وماذا يتوقع السفراء في بلاط «السانت جيمس»؟ هل يتوقعوّن أن تعاملهم الأمبراطورية القديمة ، التي تطفو الآن في استنساخ اشتراكي جديد ، بأي قدر من الجدية؟ ولماذا ، بحق السماء ، لا يزال هؤلاء القوم يتحدثّون عن بلاط «السانت جيمس» الذي لم يعد مقر الملوك ، ولا بلاطهم ، منذ ان هجرته الملكة ڤكتوريا إلى قصر «باكنجهام» في القرن التاسع عشر؟ هل هي محاولة أخرى لتضليل الأجانب السذج؟ قرأ يوسف ، ذات يوم ، في كتاب عن لندن ، ألّفه أحد اللندنيين ، أن لندن ، في حقيقة أمرها ، مؤامرة كبرى لخداع الغرباء . لم يكن المؤلفّ يبالغ . تكفي معضلة الشوارع . الشارع في لندن يحمل اسماً ما . بقربه شارع يحمل الأسم الاصلي ، تتلوه كلمة «حدائق» . بقرب الشارع الثاني ، شارع ثالث يحمل الاسم الاصلي تتلوه كلمة «اصطبل» . وشارع رابع يحمل الاسم تتلوه كلمة «هلالْ» . في لندن ، وحدها ، تستخدم الحدائق والأصطبلات والأهّلة بمعنى الشوارع .

قطعت عليه كاثي خواطره :

- السيد السفير ! تفضل معي . الوزير بإنتظارك .

سار معها يوسف ، عبر دهاليز طويلة جديدة حتى وصلا مكتب وزير الدولة . دخل المكتب ووجد كل شيء كما يعهده . الوزير جالس ، كالعادة ، خلف الطاولة الخالية من الأوراق ، كالعادة . ومساعده الشخصي ، توني ، يقف أمامه ، كالعادة ، وفي يده الملف المعتاد . وآلة صنع القهوة تمارس نشاطها المعتاد . واللوحة البحرية المعتادة تزيّن الجدار خلف ظهر الوزير . هل من المقبول سياسياً وضع لوحة تمثلّ انتصاراً بحرياً بريطانياً على الأجانب ، في وزارة الأجانب؟ طرد يوسف الفكرة من ذهنه وهو يصافح الوزير الذي حيّاه بحرارة؟ وقاده إلى الركن المعتاد ، ذي المقاعد المريحة الثلاثة . جلس يوسف في مواجهة الوزير ، وجلس توني على المقعد الثالث . وضعت كاثي أمام يوسف فنجان القهوة الممزوجة بالحليب ، والصحن المعتاد الذي تسكنه قطع البسكويت الثلاثة المعتادة .

ابتسم الوزير :

- يوسف! لم ارك منذ مدة . ما هي أخبارك؟

- كل شيء على ما يرام ، يا مايكل . انت تعرف أنني لا أطلب مقابلتك إلاّ إذا جدّ شيء هام . أعرف مدى انشغالك ومدى اعتماد رئيس الوزراء عليك .

تبادل الرجلان ابتسامة صغيرة لم يرها المُساعد ، المكب على

الملّف . يعرف يوسف ان وزير الدولة يكره رئيسه المباشر ، وزير الخارجية ، وأن رئيس الوزراء ، بدوره لا يكّن لوزير الخارجية الكثير من المودّة . ويعرف يوسف أن رئيس الوزراء كثيراً ما يتجاهل وزير الخارجية ، ويتعامل ، مباشرة ، مع مرؤوسه وزير الدولة . قرر يوسف ، منذ أن رأى وزير الخارجية لأول مرة ، أنه يستحيل أن يوجد إنسان سويّ لا يكره وزير الخارجية . ساد صمت قصير ، ارتشف الرجلان اثناءه القهوة ، ثم قال يوسف :

- لا بُد انك سمعت تفاصيل ما حدث .

- تقصد في النهروان؟

- بطبيعة الحال . لا يعنيني كثيراً ما يدور في زمبابوي .

تنهدّ وزير الدولة ، الذي تشمل مسؤولياته أفريقيا ، وقال :

- ليتنى أستطيع أن أقول الشيء نفسه . أخبرني اصدقاؤنا الأمريكيون أن محاولة الإنقلاب لم تكن جدّية .

- اصدقاؤنا الأمريكيون سيدفعونني إلى الجنون . لم تكن محاولة جدّية؟! قضينا أكثر من سنتين نخطط للإنقلاب . كان هناك أكثر من مئة ضابط من مختلف الرتب . كانت هناك عدة ألوية جاهزة للتحرّك . وماذا فعل أصدقاؤنا الأمريكيون؟! تجاهلوا دورهم في الخطة . لم تأت الغارات الجوّية التي وعدوا بها ، ولم يجئ الدعم السياسي الفوري الذي التزموا به . والنتيجة؟! النتيجة ، يا عزيزي مايكل ، ان هذا الوحش البشري ، همّام بوسنّين ، يلتهم الآن ، أكثر من مئة ضحيّة

جديدة ، لا شكّ ان أصدقاءنا الامريكيين يشعرون بكثير من الرضا عن النفس .

- يوسف! لا تنفعل! دعنا نفكرّ بهدوء .

- نفكرّ بهدوء والإعدامات مستمرة في النهروان؟! نفكّر بهدوء والأمل في حدوث إنقلاب يودى بالطاغية يتلاشى؟ نفكّر بهدوء . . .

قاطعه وزير الدولة :

- صديقك اللدود همّام استطاع البقاء حتى الآن لأنه كان ، دوماً ، قادراً على التفكير بهدوء .

- حسناً ! حسناً ! سأحاول تقليد الوغد . سأفكّر بهدوء . والتفكير الهادئ يقول لي أنني سوف أبدأ من الصفر . وسوف اتعلّم من الدرس القاسي . هذه المرّة لن يتوقع أحد تدخلاً من الأصدقاء في واشنطن . هذه المرة يجب ان يعتمد الانقلابيون على أنفسهم . مايكل! هل تعرف ان هذه هي المحاولة الانقلابية الخامسة منذ تحرير الكوت؟ هل تعرف أن كل محاولة تلتها عشرات الاعدامات! هل تعرف . . .

إبتسم وزير الدولة وهو يقاطعه :

- بدأت تنفعل من جديد . قلت لك أننا يجب أن نفكر بهدوء . متى سترى سايمونز؟

ضحك يوسف :

- هل تتوقع مني ، حقاً ، أن أجيب على سؤالك؟ لا بدّ ان رئيس جواسيسك أخبرك متى سنلتقي ، وربما ما سأقوله أثناء اللقاء .

استمر الحوار نصف ساعة ، ثم وقف يوسف مستأذناً . أسلمه الوزير عند باب المكتب إلى كائي التي بدأت رحلتها الطويلة معه إلى قاعة السفراء لإصطحاب الحارس ، ثم بدأت الرحلة الطويلة الأخرى إلى مدخل السفراء .

بمجرّد خروج السفير التفت توني إلى رئيسه :

- السّيد الوزير! ما قصة هذا السفير؟ ما هي مشكلته؟

ضحك الوزير :

- توني! لا زلت جديداً هنا . قصة السفير طويلة بعض الشيء ، ومشاكله متعددّة . ماذا تريد أن تعرف؟

- يبدو لي أن حقده على همّام يتجاوز ، بكثير ، متطلبّات الواجب .

- في هذا أنت مصيب تماماً . علاقة صاحب السعادة بالطاغية غريبة جدّاً . كان قبل الغزو سفيراً لبلاده في النهروان . قضى هناك قرابة اربع سنوات ، وكان فعّالاً جداً . استطاع خلق شبكة علاقات واسعة تحت سمع همّام وبصره . هناك من يقول أنه استطاع ان يقيم صداقة شخصية حميمة مع همّام ، إن كان هذا بالإمكان . وهناك من يزعم انه استطاع ان يعرف ان همّام كان ينوي احتلال الكوت وأنه حذّر حكومته بلا جدوى . ثم توترت العلاقة بين الزعيم والسفير . دخلت أمرأة حسناء على الخط . «فتشّ عن المرأة» ، كما قال صديقنا القديم نابليون ، او كما قال انسان مجهول نسبت كلماته إلى نابليون .

ذات ليلة ، وقعت حادثة مرور . كالعادة ، حادثة مرور . ماتت زوجة السفير ونجا هو بإعجوبة . بعد الحادث جاء الغزو . توني! القصة تطول ، وتستطيع ان تقرأ التفاصيل في ملفّه . خذ ، آلان ، هذه الرسالة إلى مدير MI6 .

بدأ وزير الدولة يملي :

- عزيزي جلين ،

قابلت ، هذا الصباح ، صديقنا يوسف الفلكي ، وكان غاضباً جداً لعدم وفاء الأمريكيين بوعدهم بمساندة المحاولة الانقلابية الأخيرة في النهروان . الأمريكيون ، كما تعرف ، يعتقدون أن المحاولة لم تكن جدّية . من يعرف حقيقة ما حدث؟ عندما تجتمع بيوسف أوضح له موقفنا . نحن لا نستطيع أن نؤيد أي انقلاب علناً ما لم يسيطر الانقلابيون على العاصمة . ونحن نرى ان دول الجوار أقدر منا على معرفة الضباط الذين يستطيعون القيام بإنقلاب ناجح . نسقّ مع C.I. A قبل ان تبحث معه أي محاولات جديدة . أخبره أننا بحاجة إلى فترة من الهدوء والتخطيط . ومع ذلك لا تثبّطْ عزمه ، ودعه يعمل بنشاطه المعهود . قد يفاجئنا يوسف الفلكي ، ذات يوم ، بإنقلاب ناجح في سعدباد . بالمناسبة ، أرسِلْ لي ملّف صاحب السعادة فأنا بحاجة إلى مراجعة بعض التفاصيل .

المخلص

مايكل

صمت وزير الدولة قليلاً ، ثم قال لمساعده :

- أرسل لوزير الخارجية ملخّصاً بما دار بيني وبين السفير ، وصورة لرئيس الوزراء ، وصورة لسفارتنا في واشنطن ، وصورة لسفارتنا في الكوت .

***

. . . ولد يوسف الفلكي في الكوت سنة ١٩٤٤ في عائلة ثرّية معروفة ، وكان والده ، يعقوب ، من تجار اللؤلؤ وله علاقة وطيدة بالأسرة الحاكمة . بعد إكمال دراسته الثانوية في الكوت أبتعث يوسف للدراسة في بريطانيا حيث أنهى متطلّبات القبول في فترة قياسية ، والتحق بكلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية ، وتخرج منها بإمتياز . كانت الفترة التي قضاها في بريطانيا سعيدة جداً ، كما يكررّ هو دائماً ، ولعّل هذا سبب ما عرف عنه من ميول ودّية قوّية نحو بريطانيا . بمجرد تخرّجه في سنة ١٩٦٦ التحق بوزارة الخارجية الناشئة في الكوت ، وبدأ عمله ملحقاً في سفارة دولته في واشنطن ، وهناك حصل على الماجستير في العلاقات الدولية من جامعة جورج تاون . تنقل في عدة وظائف دبلوماسية ، وكان نَشِطاً دؤوباً على نحو لفت إليه نظر وزير الخارجية الذي اختاره مديراً لمكتبه ورقاه ، استثنائياً ، إلى مرتبة سفير . من هذا الموقع ، اتيح ليوسف ان يتعرّف على عدد كبير

من الشخصيات السياسية المعروفة داخل العالم العربي وخارجه . في هذه الفترة ، تزوج وزير الدفاع الأرمل شقيقة يوسف ، ونشأت بين الرجلين صلة تطورّتْ إلى صداقة عميقة . بفضل قدرته الفريدة على تطوير العلاقات واستثمارها ، تحول يوسف مع مطلع الثمانينات إلى واحد من أبرز رجال الكوت . في منتصف الثمانينات ، عندما كانت العلاقة بين النهروان والكوت عاصفة جداً اختير يوسف سفيراً لبلاده في النهروان . استطاع ان يحقق انفراجاً كبيراً في العلاقات ، كما تمكن من بناء علاقة شخصية قوية بديكتاتور النهروان . اهتزّت العلاقة بين الرجلين بسبب المنافسة على امرأة . يقول الذين عرفوا يوسف اثناء دراسته في لندن أنه كان محاطاً بجمع كبير من الصديقات . يبدو أنه اسدل ستاراً على ماضيه الحافل بمجرد زواجه سنة ١٩٧٠ من ناهد البليدعي التي تنتمي ، بدورها ، إلى عائلة معروفة في الكوت . تدلّ كل الدلائل أن الزواج كان سعيداً رغم عدم وجود أولاد . انتهت حياة ناهد ، على نحو مأساوي ، في شارع من شوارع سعدباد عندما اصطدمت السيّارة التي كان يوسف يقودها ، وناهد بقربه ، بشاحنة عسكرية ضخمة (الأرجح ان الشاحنة هي التي اصطدمت بالسيّارة ، ولكن من يدري؟) . ماتت ناهد ، فوراً ، ونجا يوسف بأعجوبة ، وعاد إلى الكوت . وحدث الغزو . بإمكاننا ان نعتبر الحادث نقطة تحوّل جوهرية في حياة يوسف الفلكي . أصبح بعدها مسكوناً بهاجس الانتقام من الديكتاتور الذي يوقن يوسف أنّه دبّر

الحادث . كان هناك هاجس آخر ، هو النساء . تحول يوسف الأرمل إلى زئر نساء ينتقل من امرأة جميلة إلى امرأة جميلة . هذه الظاهرة تحتاج إلى تحليل نفسي لتفسيرها . . . تمكنّ يوسف في لندن عبر نشاطه الذي لا يهدأ وإتصالاته الواسعة من أن يكوّن قاعدة فعّالة داخل المعارضة النهروانية ، كما أصبح مِحور كلّ الأنشطة المعادية لهمّام . . .

(من ملف MI6

عن يوسف الفلكي)

***

عندما دخل يوسف جناحه الفخم ، في مبنى السفارة الفخم ، في «بلجرافيا سكوير» ، وجد سكرتيراته الثلاث في إنتظاره . سأل الأولى ، ليلى ، المسؤولة عن المكالمات :

- هل اتصل أحد؟

ردّت ليلى بعفوية :

- هل بقي أحد لم يتصل؟ هل أبدأ بالصحفيين أو السفراء أو زعماء المعارضة أو . . .

قاطعها :

- لا تبدأي! اكتبي اسماء المتصليّن ، وأرسلي لي الورقة .

- بعضها عاجل جداً .

- لا يوجد شيء لا يستطيع الإنتظار إلاّ . . .

صمت دون أن يكمل الجملة ، ثم التفت إلى سميرة ، المسؤولة عن المكاتبات :

- ماذا عن البرقيات والرسائل؟

- كلّها على طاولتك .

توقف عند الطاولة الثالثة وسأل مارجريت ، سكرتيرة المواعيد المخضرمة :

- وأنت يا مارجريت؟ أيّ مفاجأة سارّة تحملينها في هذا الصباح؟

- زعماء . . .

قاطعها :

- أعرف ، أعرف . زعماء المعارضة النهروانية . اعتذري . لن استطيع أن اقابلهم اليوم .

- حسناً! هناك موعدك مع جيمس بيكر ، من السفارة الامريكية ، بعد ساعة . وهناك موعدك مع السفير البولندي بعد ساعتين . وهناك حفل الاستقبال في السفارة الألمانية . وبعد ذلك هناك العشاء مع السفير الفرنسي .

قبل أن يدخل مكتبه ، التفت إلى السكرتيرات ، وقال :

- لا أريد أيّ ازعاج . لا أريد أيّ مكالمة . لا أريد أن أرى أحداً حتى يجيء المستر بيكر .

قالت مارجريت بسرعة :

- الوزير المفوّض يقول أنه يجب ان يراك على الفور .

ردّ يوسف بحدة خففتّ ابتسامته وطأتها :

- ذكرّي الوزير المفوض أنه لا يوجد في هذه السفارة من يحقّ له ان يطلب رؤية أحد على الفور . . .

قاطعته مارجريت :

- إلاّ صاحب السعادة .

- مارجريت! علميّ الوزير المفوّض شيئاً من حكمتك .

***

يتهادى المركب الرئاسي الفاخر متثاقلاً على مياه النهر . لا توجد أي زوارق بقربه أو أمامه أو وراءه . على امتداد الضفتيّن تقف سيارات يبدو أنها عاديّة ، ولكن عين يوسف المدربة تعرف أنها تابعة للأمن . داخل الكابينه المكيفة ينفث الرئيس همّام بو سنّيْن دخان سيجاره الكوبي الطويل ، ويقول لضيفه :

- هل فهمت يا عزيزي؟ الردع! الردع! الردع! وأد الفتنة في مهدها قبل ان تفتح عينها . هل سمعت بقصة قاتل الكلب؟

يرّد يوسف بأدب :

- لا ، سيادة الرئيس . ما هي قصة قاتل الكلب؟

يبتسم همّام ابتسامة عريضة ، ويقول :

- هذه قصّة حقيقية وقعت احداثها بين عشيرتين من عشائرنا . كان هناك غلام يلعب مع صديق له من عشيرة أخرى ، وكان مع

الصديق كلبه الصغير . تحوّل اللعب إلى شجار ، وأخرج الغلام سكيّناً شق بها بطن الكلب الصغير الذي مات على الفور . بدأت الكارثة بهذه البساطة .

يقول يوسف مستغرباً :

- كارثة؟! بسبب كلب صغير؟!

ـ آه! نسيت أن أخبرك أن الغلام الذي قتل الكلب هو إبن شيخ العشيرة . والغلام الآخر ، صاحب الكلب المقتول ، هو ابن شيخ العشيرة الثانية . بمجرّد قتل الكلب هرب صاحبه باكياً إلى مضارب عشيرته يحمل الكلب المقتول . اجتمعت العشيرة الأخرى ، عشيرة قاتل الكلب ، للتشاور في ما يمكن ان يحدث . قرّر شيخ العشيرة ان يستعين بحكيم العشيرة المُسّن . ذهب إليه وروى القصة . فكرّ الحكيم قليلاً ، ثم قال : «اقتلوا قاتل الكلب» . صرخ الشيخ : «تريد أن أقتل ابني من أجل جرو؟! هل جُننت؟! هل أصابك الخرف؟!» . إلاّ أن حكيم العشيرة ردّ بهدوء : «اقتلوا قاتل الكلب» ، زاد صراخ الشيخ : وتوالت احتجاجاته ، إلاّ ان الحكيم لم يتأثر واستمر يردد : «اقتلوا قاتل الكلب» .

نفخ همام سحابة جديدة من الدخان في سماء الكابينه وقال :

- هل تعرف ما حدث بعد ذلك؟ قامت عشيرة الكلب المقتول بقتل الغلام الذي قتل الكلب . وانتقمت عشيرة الغلام بقتل شيخ العشيرة الثانية . استمرت حرب الثأر حتى لم يبق من العشيرتين

سوى النساء والأطفال ورجل عجوز حزين يردّد : «قلت لهم اقتلوا قاتل الكلب ولم يسمع أحد» .

صمت همّام ، وتأمل الضفتيّن ، وقال :

- هل فهمت يا يوسف؟! استأصل الشرّ قبل ان تظهر أسنانه . إهجم على العدّو قبل ان يفكرّ ، مُجرّد تفكير ، في الهجوم عليك . باغت خصمك قبل ان يخطر بباله ان يباغتك . هذه هي السياسة! هل فهمت يا يوسف؟!

صمت الرجلان ، ثم قال همّام :

- لهذا تجد الأمن مستقراً في النهروان ، تجد لنظام الحكم هيبة ، وتجد الحكومة قويّة . كل من يفكرّ في قتل جرو يعرف تمام المعرفة انه سوف يقُتل . لا توجد في ذهن أحد ذرة من الشك .

أحسّ يوسف بقشعريرة تسري في دمائه ، وظل صامتاً .

***

يجيئه صوت مارجريت عبر التيليفون .

- صاحب السعادة! وصل المستر بيكر .

- أدخليه . أدخليه الآن .

يقوم يوسف مُرحباً بجيمس بيكر الذي يعمل مستشاراً في السفارة الأمريكية ، إلا ان عمله الحقيقي هو ادارة محطة C. I. A في

بريطانيا . يصافح الزائر بحرارة ، ويقول :

- جيم! كيف حالك؟

- على خير حال . وانت؟

- كما تعهدني . تفضل!

بمجرد جلوس الضيف يفتح الباب ، ويدخل فرّاش اسمر أنيق الهندام يقدّم فنجاني قهوة للمضيف والضيف ، ويغادر المكتب . يقول يوسف للجاسوس المتنكرّ في زي دبلوماسي :

- شيء مزعج ، ما حدث في النهروان ، شيء مزعج جداً . لا أصّدق ان الوعود القاطعة التي حصل عليها الانقلابيون تمّ تجاهلها بهذه السرعة .

يبتسم الضيف ابتسامة أب صبور تعود على شيطنة ابنه الصغير :

- يوسف! أنت وأنا نعرف أن المسألة لم تكن بهذه البساطة .

يقول يوسف بسخرية لا يحاول إخفاءها :

- اذن ، تفضل ، مشكوراً ، بشرح تعقيدات المسألة لهذا الطالب بطئ الفهم .

يتجاهل الضيف السخرية ، ويقول :

- اولاً ، لم يتحرك سوى نصف الضباط الذين اتفقنا أن يتحركوا . ثانياً ، تحرك هؤلاء الضباط دون اتفاق مسبق معنا على الموعد ، خلافاً للتفاهم الذي تمّ عن طريقك . ثالثاً ، عندما تحركّ هؤلاء الضباط امكن اكتشاف تحركهّم خلال دقائق . . .

ينفجر يوسف مقاطعاً :

- خلال دقائق ، تمكنوّا من السيطرة على المعسكر . خلال دقائق ، بدأت معسكرات أخرى تتأهب . وخلال دقائق . . .

يقاطعه الضيف :

- حسناً! حسناً! تمكنوّا من السيطرة على المعسكر لمدة نصف ساعة ، أو نحوها . لن نختلف على عدد الدقائق . خلال هذه الفترة ، لم تتحرك أي قوات لمساندتهم . حقيقة الأمر ان زمام الموقف لم يفلت من همّام لحظة واحدة .

- لأن طائراتكم لم تصل . لو بدأ قصف سعدباد ، على الفور ، لتغيرت الصورة تماماً .

- يوسف! عزيزي يوسف! تحتاج الطائرات إلى ساعة ، على الأقل ، لكي تقلع وتصل إلى العاصمة . وماذا كنت تريد ان نقصف في العاصمة؟ وما هو التبرير الذي نملكه؟ قبل ان تقلع الطائرات كان كل شيء قد انتهى . إذا كانت لديك معلومات غير هذه فهي معلومات غير دقيقه .

- جيم! انت تعرف تمام المعرفة ان معلوماتي تجئ من قلب المؤسسة العسكرية ، وتصلني قبل ان تصلكم .

- يوسف! لا جدوى من الحديث عن الماضي ، الحليب المسكوب . أودّ أن نبحث المستقبل . سمعت انك ستقابل مدير MI6 .

يقاطعه يوسف مبتسماً :

- سوف أراه غداً . ويا لهذا الموعد السّري الذي يعرفه الجميع!

- الجماعة هنا ، بالمناسبة ، يشاركوننا الرأي أن المحاولة الانقلابية . . .

يقاطعه يوسف مجدّداً :

- الجماعة هنا؟! منذ متى اختلف الجماعة هنا معكم حول أيّ شيء؟!

- آه! سوف تستغرب لو عرفت كم نختلف . المهمّ ، الآن ، هو الخطوة القادمة . أصدقاؤنا البريطانيون يفضلوّن ، في هذه المرحلة ، ان نكتفي بالتحرك السياسي . يرون أن أي محاولة جديدة فاشلة ستصيب المعارضة النهروانية بضربة قد لا تفيق منها أبداً .

يستمر الرجلان في حديثهما الصاخب حتى يجئ صوت مارجريت ، عبر التيليفون ، معلناً وصول السفير البولندي . يرسل يوسف ضيفه إلى الباب ، ويصافح الزائر الجديد :

- أهلاً سعادة السفير! تفضّل! إدخلْ!

***

. . . ولا ينبغي أن يستهين أحد بيوسف الفلكي . . . المظهر الخارجي اللامع ، القمصان الحريرية ، والبدل الثمينة المفصّلة في

«سيـڤل رو» ، والملامح الطفولية التي لا تشي بعمره الحقيقي ، يخفي ، وراءه ، عقلاً من الطراز الأول . . . تؤكدّ مصادرنا أنه مُقرّب جداً من وزير الدفاع ، رجل الكوت القويّ ، وان وزير الدفاع وضع تحت تصرّفه من مخصصات الوزارة السّرية مبلغاً سنوياً ضخماً يعتقد أصدقاؤنا البريطانيون أنه لا يقل عن مليوني جنيه (بطبيعة الحال ، لا يستطيع اصدقاؤنا البريطانيون اعطاءنا الرقم الصحيح لأنهم ، بطبيعة الحال ، لا يراقبون حسابات البنوك!) . استطاع يوسف عن طريق الإنفاق الذكيّ أن يوجد شبكة فعالّة لجمع المعلومات ، كما استطاع عن طريق الضيافة الباذخة والهدايا الثمينة ، بالإضافة إلى ما تتمتع به شخصيته من دفء فطري ، أن يكوّن صداقات مع مختلف الفئات في المجتمع البريطاني السياسي . . . ومن الضروري الإشارة إلى أنه لا يهمل احتياجاته الشخصية ونزعاته إلى الترف عند انفاقه المبالغ الموضوعة تحت تصرّفه . . . وعلاقاته النسائية الواسعة هي ، دوماً ، مصدر اشاعات وتندّر ، وربّما حسد ، بين أوساط السفراء . . . وتعتقد مصادرنا أن ضعفه أمام النساء قد يكون حصان طروادة الذي سيؤدّي إلى نهايته ، خاصة ان زوجته قتلت وكاد هو ان يقتل بسبب امرأة . . .

(من ملف C.I.A

عن يوسف الفلكي)

***

قضى يوسف ربع ساعة في حفل الإستقبال الألماني مرّت عليه وكأنها رُبع يوم . لا شيء اثقل على نفسه من حفلات الإستقبال ، ولا شيء يستحيل تجنبّه في مهنة السفير سوى حفلات الاستقبال . يكره يوسف ان يتحدّث واقفاً على قدميه ، ويؤمن بنظرية مؤداهّا أنه يصعب على الإنسان الذكيّ ان يشارك في حوار ذكيّ وهو واقف . بدأت الفكرة تغزو رأسه أيام الدراسة الجامعية . كان يلاحظ أن الاستاذ الذي يحاضر جالساً يقول كلاماً أعمق بكثير من الأستاذ الذي يحاضر واقفاً . لاحظ ، بعد ذلك ، ان جميع الخطب الديماجوجية والسخيفة والمليئة بالشتائم والإنفعالات لا تُلقى إلا والخطيب واقف . ينتقل يوسف من ضيف إلى ضيف دون أن يقول ، أو يسمع ، شيئاً يتجاوز العبارات الممجوجة التي اكل عليها دهر الدبلوماسية ، وشرب :

- متى قدمت إلى لندن؟
- هل تعجبك الحياة هنا؟
- الجو جميل هذه الأيام .
- اين يدرس أولادك؟
- أين كنت تعمل قبل قدومك إلى لندن؟
- فستان رائع ، يا مسز بلاك .
- سعادة السفير! الطعام شهيّ
- بطبيعة الحال! تعجبني لندن . تعجبني جداً .

- عزيزي اللورد بجمان ! كيف حال ساقك؟

- أعجبتني مقالتك اليوم .

- كنت في باريس قبل مجيئي إلى هنا .

- هل اولادك وزوجتك معك؟

إنتقل يوسف ، بعد حفل الإستقبال ، إلى عشاء السفير الفرنسي . هنا ، يجد يوسف المناخ اكثر ملائمة لطبيعته : طعام لذيذ ، ونبيذ معتق ، وعدد قليل من الضيوف ، وحوار لا يقتله مللاً . التفت يوسف إلى جارته الحسناء على طاولة العشاء ، ونظر إلى صديقه المضيف نظرة اعتراف بالجميل ، استقبلها الضيف بهزة صغيرة من رأسه . قال يوسف لجارته :

- اسمحي لي أن اتخلّى عن المجاملة وأقول لك ، بصراحة ، أنني أستغرب أن تشغل امرأة جميلة مثلك وظيفة مّملة مثل رئاسة القسم القنصلي ، حتى عندما يكون في السفارة الفرنسية .

- السيد السفير! انت دبلوماسي جداً .

- لا! أنا رجل اقسمت ألاّ اكذب على أمرأة حسناء .

- اشكرك . وانا ، في الحقيقة ، احبّ العمل في القسم القنصلي لأنه اكثر أقسام السفارة إثارة .

- آه! الضارب والمضروب ، والسارق والمسروق ، والجوازات المفقودة ، والنقود المختفية ، والتذاكر الضائعة ، والزواج والطلاق ، والصراع على حضانة الأولاد ، والمواطنون الذين يتعرضون للاهانة في

أقسام الشرطة و . . .

قاطعته مبتسمة :

- لم أكن أعرف أن السفراء يدركون ان هناك مشاكل تافهة من هذا النوع . كنت اتصوّر أن وقتهم كله ينصبّ على المشاكل الكونية الخطيرة كالحرب والسلام .

- آه! بريجيت! - هل تسمحين لي أن اسميّك بريجيت؟ وأرجو أن تسمّيني يوسف! - لم تبق وظيفه دبلوماسية أو قنصلية لم أشغلها .

- إذن فأنت بدأت من اول السّلم وتدرجّت حتى وصلت إلى نهايته؟

- الم أقل لك أني أقسمت ألاّ اكذب على أمرأة جميلة؟ بدأت من اول السّلم وعندما وصلت إلى منتصفه قفزت إلى آخره .

- كيف قفزت؟

- هذه قصّة معقدّة بعض الشيء .

- أريد أن أسمعها .

- قد أرويها لك في المستقبل .

في هذه الأثناء بدأ الجرسون يزيح طبق الحساء ويضع طبق السمك . يقتضي العرف أن ينتقل الرجل من جارة إلى الجارة الأخرى مع تغيّر الأطباق . يعجب يوسف لكثرة الرجال الذين لم يسمعوا بهذه القاعدة ، وفيهم عدد لا بأس به من الدبلوماسيين ، وتكون النتيجة انهم يقضون معظم الوقت في الحديث مع جارة واحدة . التفت إلى

يساره ، وقال :

- مسز حميد! سمعت أن المندوب السامي قدّم أوراق إعتماده هذا الأسبوع .

إلتفتت جميلة حميد ، زوجة المندوب السامي الباكستاني اليه ، وقالت :

- نعم . كانت مناسبة تاريخية لن ننساها ، زوجي وأنا .

- يجب أن تشكريني . لقد ساهمت في جعل هذه المناسبة تاريخية ، على الأقل بالنسبة لك .

- سوف أشكرك على أية حال ، ولكن ماذا فعلت يا صاحب السعادة؟

- عندما قدّمت أوراق اعتمادي لجلالة الملكة قبل سبعة أعوام لم تكن الزوجة تستقل مركبة . كانت تركب سيارة عادية . وكان هذا الوضع يزعج السفراء ، ويزعج الزوجات ، ولكن أحداً لم يتكلّم . عندما قدمت أنا وجدت أن بوسعي ، بإعتباري غير متزوّج ، ان أثير هذا الموضوع بلا حرج . بالفعل ، أثرت المسألة ، مراراً وتكراراً ، حتى استجاب أساطين البروتوكول البريطاني العتيد ، وأصبحت زوجة السفير تستّقل ، بدورها ، مركبة كما رأيت بنفسك يا سيدتي .

- تستحق الشكر ، حقاً ، يا صاحب السعادة . لم اكن أعرف أنك أعزب .

- كنت متزوجاً . ولكن زوجتي توفيت في حادثة مرور .

- آسفه جداً! لم أكن أقصد . . .

قاطعها :

- لا داعي للأسف . نحن المسلمين ، كما تعرفين يا سيدتي نتقبّل قضاء الله وقدره بنفوس راضية . فلنعد إلى البروتوكول . هناك شيء فشلت كل جهودي في تغييره .

- وما هو؟

- تحقيق المساواة بينكم ، معشر المندوبين السامين وبيننا ، معشر السفراء .

- ماذا تقصد؟ كنت أعتقد أنه لا يوجد أي فرق .

- لا يوجد فرق في الجوهر ، إلا أن هناك عدة فروق في المظهر . خذي ، على سبيل المثال ، موضوع الخيول .

- الخيول؟! ولكن السفراء ، بدورهم ، يذهبون إلى قصر «باكنجهام» على مركبات تجرّها الخيول .

- آه! هناك الفرق! المندوبون السامون يذهبون في مركب تجرّها اربعة خيول ، أما نحن ، معشر السفراء العاديين ، فتُعطى لنا مركبة لا يجرّها سوى حصانين .

ضحكت جميلة حميد ، وقالت :

- أعتقد ، يا صاحب السعادة ، أنك تمزح .

- هذه حقيقة ، يا مسز حميد . عندما ابديت احتجاجي لرئيس المراسم الملكية كان ردّه جاهزاً : على الكوت ان تنضّم إلى الكومنولث

فأصبح مندوباً سامياً واستعمل مركبة من اربعة خيول .

- هذا شيء طريف ، طريف جداً . هل هناك فروق أخرى؟

- عند السلام على رئيس دولة يجيء إلى بريطانيا في زيارة رسمية ، والسلام يتمّ في قصر «سانت جيمس» ، ينقسم السلك الدبلوماسي إلى قسمين ينتظر كل قسم في قاعة منفصلة ، ينتظر السفراء في قاعة والمندوبون السامون في قاعة أخرى . بالمناسبة ، هل تعرفين أن أيّ رئيس دولة لا يجئ إلى بريطانيا في زيارة رسمية إلاّ مرة واحدة؟

- لم أفهم . أرى كثيراً من رؤساء الدول يترددون على بريطانيا بصفة منتظمة .

- هذا صحيح . ولكن الزيارة الرسمية ، ويسمّونها هنا زيارة الدولة ، تُتاح لكل رئيس مرّة واحدة في العمر . تستقبل الملكة رئيسين كل سنة ، رئيسين فقط ، في زيارة رسمية . وكما تتصورّين يتم انتقاء الرؤساء المدعويّن بعناية كبيرة . في الزيارة الرسمية وحدها ، تنتظر الملكة ضيفها في محطة القطار ، وتصطحبه في المركبة الملكية إلى قصر «باكنجهام» أو قصر «وندسور» وتستضيفه في القصر ، وتقيم له حفل عشاء رسمي ، ويتم تبادل الأوسمة .

- ولكن ماذا إذا جاء رئيس الدولة مرة أخرى؟

- هذه الزيارات تعتبر زيارات عمل ويحيط بها حد أدنى من البروتوكول . يقابله رئيس الوزراء أو وزير الخارجية ، حسب مكانة الدولة ، وفي حالات نادرة تدعوه الملكة إلى حفل شاي أو غداء خاص .

- هل انتهت الفروق بيننا وبينكم؟

- لا . في الاحتفال السنوي الكبير الذي تحضره الملكة ، إستعراض العلم ، يجلس المندوبون السامون في القسم المخصّص لرئيس الوزراء والوزراء ، أمّا السفراء فيجلسون في قسم مجاور منفصل .

- ولكنني لا أفهم المنطق . ما هو السبب في التفرقة؟

- السبب ، بإختصار ، أن مُمّثلي دول الكومنولث يُعتبرون ، بسبب العلاقات التاريخية بين دولهم وبريطانيا ، من العائلة ، من أهل البيت ، إلى حدّ ما على أية حال .

- وهل تختلف قواعد الأسبقية؟

- الأسبقية هنا ، كما هي في كل مكان ، بالاقدمية المُطلقة ، ولا يتمتع المندوبون السامون بأي ميزة . قد يكون عميد السلك الدبلوماسي سفيراً وقد يكون مندوباً سامياً وقد يكون المبعوث البابوي .

- انت منجم معلومات ، يا صاحب السعادة . سأقترح على زوجي الإستعانة بك إذا قابلته مشكلة بروتوكولية .

- أنا تحت تصرف الباكستان!

- اشكرك ، اشكرك . ما رأيك في هذا السمك؟ اليس لذيذاً؟

- لذيذ جداً .

في هذه الأثناء جاء طبق اللحم ، ومعه النبيذ الاحمر المعتّق ، وعاد يوسف إلى جارته الحسناء :

- بريجيت! عمّاذا كنا نتكلم؟

- عن قفزتك التاريخية من منتصف السلم إلى نهايته . وعدت أن تروي لي القصة .

- هذه قصة مّملة . دعيني أخبرك ما حدث لي عندما كنت في موقع مثل موقعك الحالي .

- كنت رئيس قسم قنصلي؟!

- الم أقل لك أني توليّت كل وظيفة دبلوماسية وقنصلية تخطر بالبال؟ كنت رئيس القسم القنصلي في سفارتنا في واشنطن عندما حدثت لي حادثة غريبة جداً . لا تُصدّق! لا تُصدّق!

- أنا أصدّق كل ما يقوله السفراء .

- يا لطيبة قلبك! حسناً! كنت في مكتبي ، ذات صباح ، عندما دخل عليّ مواطن مضطرب جداً ، خائفٌ جداً ، احتجت إلى بعض الوقت لتهدئته . طلب ان يسافر من الولايات المتحدة ، على الفور ، وعندما سألته عن السبب تردّد ، في البداية ، ثم قصّ عليّ قصته الغريبة . قال أنه كان يزور حديقة الحيوان مع زوجته الأمريكية ، وهناك عضّ وطواط عنقها . لم يعر الموضوع أي اهتمام حتّى بدأت زوجته تتصرف بغرابة . أخذت تخرج في المساء ، وتمشي في الشوارع على غيرهدى ، وتعود بعد منتصف الليل وثيابها ملطخة بالدماء . ولا تتذكر أين كانت أو ماذا كانت تفعل . في الليلة السابقة لمجيئه أفاق الرجل من نوم عميق على إثر وخزة مؤلمة في رقبته . لك أن تتصوريّ ذعره عندما وجد زوجته تمتص الدم من رقبته . هرب من المنزل ، وظل

هائماً على وجهه طوال الليل حتى جاء في الصباح إلى السفارة يطالب بترحيله . فتح قميصه ، ورأيت أثر الاسنان واضحاً على رقبته . رتبّتُ سفره على الفور . تصوري! زوجته مصاصّه دماء!

ابتسمت جارته وقالت :

– لماذا تعتقد ان هذه حادثة فريدة؟ في الشهر الماضي مرتّ عليّ حالة أكثر غرابة . جاءتني مواطنة فرنسية وقالت أنها أحبّت ثريّاً بريطانياً وبعد صداقة استمرت عدة شهور تزوجّته وتم كل شيء على ما يرام ، وكان الزواج سعيداً جداً ، حتى اكتشفت الزوجة ان زوجها . . .

قاطعها :

– لا تخبريني! لا تخبريني! دراكيولا؟!

– لا! لا! كانت الزوجة تزور احدى صديقاتها وعادت إلى المنزل بعد الظلام وكان القمر بدراً ، وكان زوجها يتمشى في الحديقة . كانت الزوجة تمنّي نفسها بلقاء رومانسي تحت ضوء القمر عندما فوجئت بأصوات غريبة قادمة من الحديقة . عندما ذهبت لترى مصدر الأصوات فوجئت بزوجها ، المصرفي الشهير ، يتحول ، شبراً شبراً ، أمام عينها إلى ذئب . ذئب حقيقي! اقترب الذئب منها . وفرّت تصرخ . . .

قاطعها وهو يضحك :

– بريجيت! لك خيال رائع! هل سبق ان كتبت رواية؟

- لا يا صاحب . . . أعني يوسف! لماذا تستكثر عليّ التعامل مع رجل / ذئب إذا كنت انت تتعامل مع مصاصات الدماء؟ كله جزء من عمل اليوم ، كما يقولون .

- تُوشيه! البادئ اظلم . ما رأيكُ لو تبادلنا المزيد من قصص العمل؟ صدّقيني ان بعض القصص الواقعية تخيف اكثر من قصص الرعب .

- لم لا؟

- هناك مطعم فرنسي شهير اسمه «لاجاڤروش» . هل سمعت عنه؟

- سمعت عنه ، ولكن ميزانيتي لا تسمح لي بزيارته .

- اذن كوني ضيفتي ، وسوف تستمعين إلى قصص مثيرة جداً .

- تبدو الفكرة . . .

قاطعها :

- حسناً! مساء الجمعة . نلتقي هناك في الثامنة . هل يناسبك الموعد؟

- يناسبني ، بشرط ألاّ تزور حديقه الحيوان قبل الموعد .

يضحكان ، ويصل الصوت إلى مسمع المسز حميد التي تنظر إليهما مستغربة ، ابتسم يوسف ، وقال :

مِسِزْ حميد! بريجيت ، هنا ، تقول لي أنها تحبّ النكت السياسية ، خصوصاً السفراء .

***

الدبلوماسية الراقصة

شوهد صاحب السعادة يوسف الفلكي ، سفير الكوت المشهور بمغامراته النسائية ، يراقص صاحبة السعادة ماريا اسبينوزا ، سفيرة كوبا السمراء ، في نادي «الأنابيلز» . يقول مندوبنا ان براعة السفير والسفيرة في الرقص لفتت انظار الجميع . المعروف أنه لا توجد علاقات دبلوماسية بين الكوت وكوبا ، ولعل الرقصة الدبلوماسية خطوة في الاتجاه الصحيح .

(عمود «حول المدينة»
في «الديلي ميل»)

***

يستأجر يوسف ثلاث شقق فاخرة للمواعيد التي لا يوّد أن تتّم في المكتب أو في دار السكن . الشقّة الأولى تقع في «بارك لين» .

على مرمى حجر من فندق «الدورشستر» . الشقة الثانية ، الأقل فخامة ، تقع في شارع جانبي متفرّع من «هاي ستريت كينزنجتون» . أمّا الشقة الثالثة ، الأصغر فتقع في الجانب الراقي من شارع «فلهام» .

كان يوسف في الشقة الثانية عندما قرع الجرس ، ودخل ضيفه جلين سايمونز ، مدير MI6 . كالعادة ، بدأ الضيف :

- يوسف! لا نستطيع ان نستمر في اللقاء على هذا النحو .

وكالعادة ، ردّ يوسف :

- ولم لا؟

- انظر إلى الساعة . منتصف الليل!

- آه! الساعة السحرية . عندما تستيقظ الأشباح والشياطين والسحرة والجواسيس .

- لا أدري من أين تأتي بهذه الطاقة؟ لا أكاد أن أفتح عيوني من التعب .

- حسناً! حسناً! لن أستبقيك طويلاً . ساعة على الأكثر .

صرخ ضيفه برعب مصطنع :

- ساعة؟! ساعة كاملة؟!

- حسناً! نصف ساعة!

- لا أدري لماذا تطلب مني حكومتي ان اتعامل معك . نحن ، كما تعرف ، لا نتعامل مع السفراء ، على الإطلاق . حقيقة الأمر أننا . . .

قاطعه يوسف :

- عزيزي جلين! حكومتك تعرف أني أسرع طريق إلى صانعي القرار في حكومتي . اذا تعاملت مع جواسيسنا فلن تصل إلى نتيجة . هناك الدوامة البيروقراطية التي تعرفها : الصراع بين الاستخبارات الداخلية والإستخبارات الخارجية ، نفس الوضع الموجود هنا بينكم وبين MI5 .

- أنت تعرف أنه لا يوجد أي صراع بيننا وبين MI5 . مديرة MI5 صديقه عزيزة لي منذ أيام الدراسة .

- قل هذا للمارينز ، كما يقول اصدقاؤنا الأمريكيون . لم تجئ هنا لتتذمر من التعامل معي . جئت لإقناعي بأن المرحلة القادمة تتطلّب التركيز على العمل السياسي ، والعمل السياسي وحده .

نظر إليه جلين مستغرباً ، وقال يوسف :

- انت تعرف ، بلا شك ، القول المأثور «لا توجد أسرار في لندن» .

- لم اسمع بهذا القول المأثور من قبل . من الذي قاله؟

- ها انت ذا تسمعه الآن . وأنا الذي قلته . وهو قول صحيح .

- لا توجد في لندن أسرار بين الأصدقاء . سوف أقبل هذا القول المأثور . ما ذكرته عن العمل السياسي هو ، بالفعل ، موقفنا . الإعتقاد السائد أن أيّ محاولة جديدة فاشلة سوف تصيب المعارضة النهروانيّة بنكسة قد لا تفيق منها .

– قد تصدق هذه الملاحظة وقد لا تصدق . لن اجادل . سوف نركزّ ، في المرحلة القادمة ، على العمل السياسي . سوف يبتهج زعماء المعارضة النهروانية إذا سمعوا هذا مني . زعماء المعارضة هؤلاء لا يعشقون شيئاً كما يعشقون المؤتمرات والندوات والتصريحات والمطبوعات والنشرات .

– اتكلّم عن عمل سياسي جاد .

– ومن قال أني اتكلّم عن أمور هزلية؟ المؤتمرات تظهر وحدة المعارضة ، والندوات تكشف سؤآت النظام ، والتصريحات تطرد النوم من عيون همّام ، والمطبوعات . . .

قاطعة ضيفه :

– حسناً! حسناً! أفهم ما تريد قوله .

– سوف نركزّ على العمل السياسي . وسوف انّسق معكم ومع أصدقائنا في السفارة الأمريكية ، ولكنني لن أقطع صلتي بالمؤسسة العسكرية القادرة ، وحدها ، على إسقاط النظام .

– أعرف أن هذا رأيك الذي لا يتغيّر .

– إذن ، فلن أقول المزيد . بوسعك أن تخبر رؤساءك أنك ابلغتني الرسالة ، وبوسعي ان أقول لرؤسائي اني استلمت الرسالة .

– وبعد ذلك؟

– وبعد ذلك ننفّذ ما اتفقنا عليه الآن ، العمل السياسي وحده .

– أخشى ، يا يوسف ، أني لا استطيع الإعتماد على وعودك .

- جلين! عزيزي جلين! هل سبق ان كذبت عليك؟

- أعتقد انه من الأفضل أن اذهب قبل ان تبدأ الكذب .

خرج الضيف ، ونظر يوسف إلى الساعة ، وتمتم :

- يا له من يوم! يا له من يوم!

***

لا يكاد يدخل جناحه حتى تبادره مارجريت :

- صاحب السعادة! الوزير المفوض يوشك أن . . .

يقاطعها مبتسماً :

- سوف اراه . سوف اراه . بعد ساعة . ماذا لديك يا ليلى؟

- الاتصالات المعهودة . لا يوجد شيء عاجل .

- وانت يا سميرة؟

- البرقيات اليومية . سوف ادخلها الآن .

يلتفت إلى مارجريت :

- مارجريت! ماذا عن زعماء المعارضة النهروانية؟

- سوف يجيئون في الثانية بعد الظهر .

- كم عددهم هذه المرة؟

- الجمع كله .

- العشرة؟!

- العشرة!

تنّهد يوسف، ودخل مكتبه. استغرقت الاوراق والمكالمات التيلفونية كل اهتمامه حتى فُتح الباب ودخل نائبه، الوزير المفوض عمران البريطم. يدرك يوسف ان لعبة القط والفأر سوف تبدأ الآن. يحاول عمران الحصول على اكبر قدر ممكن من الأسرار ويحرص يوسف على اعطائه أقل قدر ممكن منها. كان هذا الطقس الأسبوعي يزعج يوسف، إلاّ انه أصبح مع التكرار، مصدر متعة، فيها قدر من الماسوشية، له، وربّما لنائبه. بدأ عمران يتحدث بصوت عال، واستمر يتحدث واقفاً:

- أبو يعقوب! هل ترضى أن أكون آخر من يعرف؟ هل يرضيك أن اكون الرجل الثاني ولا أعرف شيأً ممّا يدور في السفارة؟ هل من المعقول ان أسمع عن مباحثاتك مع الخارجية البريطانية من السكرتيرات؟

تجاهل يوسف الدسّ الرخيص المختبئ في الجملة الأخيرة، وقال:

- أبو محمد! اجلس! اجلس! استرح واشرب القهوة. انت، دائماً، اول من يعرف بكل شيء. الجميع يعرفون أني لا اشك خيطاً في ابرة بدون استشارتك.

- اذن، لماذا اسمع عن اشياء كثيرة وخطيرة تجري هنا ولا أدري عنها؟

- لا تصدّق كل ما تسمعه، يا أبو محمد. الكثير يحسدونك

على مكانتك وحظوتك ويختلقون الإشاعات لمضايقتك . كل ما يدور بيني وبين الخارجية البريطانية موجود في المراسلات التي تمرّ عليك .

عمران ، الذي لا يعرف ان للسفير بريداً خاصاً مع حكومته لا يعرف بوجوده أحد في السفارة ، أخذ يهدأ . وواصل يوسف اللعبة :

- هناك مؤتمران هامان هذا الأسبوع ، الأول عن اعمار البوسنة ، والثاني عن الاستثمار في الخليج . كان المفروض أن احضرهما بنفسي . لن يحضرهما غير السفراء . إلاّ ان ثقتي المطلقة فيك جعلتني أخبرّ المنظمين انك ستمثل الكوت في المؤتمرين . قلت لهم لا يوجد أيّ فرق بين السفير ونائبه .

بعد نصف ساعة ، خرج الوزير المفوض مبتسماً وعاد يوسف إلى اوراقه واتصالاته التيليفونية . في تمام الواحدة بعد الظهر جاءه الفرّاش بشطيرتي جبن وكوب من الحليب البارد . أخذ يوسف استراحة قصيرة تناول ، خلالها ، غذاءه ثم عاد إلى عمله . في تمام الثانية فتحت مارجريت الباب ، وقالت :

- صاحب السعادة! الجماعة في غرفة الاجتماعات .

قبل ان يقوم ، فتح يوسف درجاً اخرج منه قرصين من الاسبيرين . يعرف يوسف تمام المعرفة ، انه سوف يحتاج اليهما بمجرد ان يبدأ الاجتماع مع زعماء المعارضة النهروانية .

***

في حديقة الڤيلا المُطلّة على النهر، يجلس همّام في مواجهة ضيفه، ويشعل السيجار الضخم، وينفث سحباً في الهواء، ويقول:

- المعارضة؟! أيّ معارضة؟! عملاء وخونة! صدّقني! أنا أعرفهم، واحداً واحداً، ويعرفهم الشعب النهرواني، واحداً واحداً. لا يوجد بينهم من يصلح لإدارة مبغى فضلاً عن قيادة شعب.

يقول يوسف بأدب:

- الشعب النهرواني لن يقبل بديلاً لكم.

- الشعب النهرواني شعب عريق جداً، شعب لديه حضارة عمرها خمسة آلاف سنة. هذا الشعب يستطيع التفرقة بين العميل والوطني، بين الخائن والأمين. منذ ايام حمورابي ونبختّنصر والرشيد، والشعب النهرواني يستطيع ان يفرق بين الدجّالين الانتهازيين والقادة الحقيقيين.

ينشغل همام بسيجاره، ويخشى يوسف أن تأتيه المحاضرة المعهودة عن حمورابي ونبختنصر، إلاّ ان همّام، هذه المرة، يبدأ بالدولة العباسية:

- خذ المنصور وأبو مسلم الخراساني. تقول كتب التأريخ التي وضعها الشعوبيون أن المنصور غدر بالخراساني. هذه كذبة حقيرة. الدولة العباسية نشأت نتيجة ثورة عربية قادها عرب أقحاح من بني هاشم، ثم حاول الشعوبيون الفرس، بقيادة الخراساني، سرقتها من العرب؟ ماذا كان بوسع المنصور أن يفعل؟ أن يترك الخراساني

يسرق الثورة العربية ويجيّرها لصالح قومه الفرس؟ هل تعرف لماذا سمّيتُ أكبر فنادق سعدباد فندق «المنصور»؟ إعجاباً بما فعله المنصور بالشعوبي القذر . وتكررت القصة مع هارون الرشيد . حاول البرامكة ان يسرقوا الدولة من الرشيد ، كما حاول الخراساني ان يسرقها من المنصور . ولكن الرشيد تنبه إلى المؤامرة الحقيرة . كان يثق في هؤلاء الشعوبيين . كانوا محل ثقته العمياء . أحسن اليهم ، وأغدق عليهم ، وبنى لهم قصوراً اعظم من قصوره . وكانوا ، طيلة الوقت ، يتآمرون عليه ، طيلة الوقت . في آخر لحظة ، تنّبه الرشيد ، تغلب الذكاء العربي على الخبث الفارسي . هل تعرف كيف تمكنّ الرشيد من القضاء على رأس الفتنة ، جعفر البرمكي؟

- هناك عدة قصص روتها كتب التاريخ .

- سوف أخبرك بالقصة الحقيقية . لا تصدف الهراء عن العبّاسة وعن غيرة الرشيد من ثروة البرامكة . بإختصار ، كانت هناك مؤامرة دبّرها البرامكة للتخلص من الرشيد ، إلا ان الرشيد تمكن من سحقها . لم يكن الأمر سهلاً . كانت كل مقاليد السلطة في يد جعفر البرمكي ، وكان بوسعه القضاء على الرشيد لو لم يتحرك الأخير . عندمّا قرر الرشيد سحق المؤامرة تصرّف بدهاء . طلب من «أخيه» - تصوّر انه كان يسمى جعفر البرمكي «أخي»! - أن يتولى امارة خراسان بالاضافة إلى الوزارة . سُرَّ الشعوبي المتآمر ، بطبيعة الحال . من خراسان يصبح الانقضاض على الدولة أمراً ميسوراً .

طلب الرشيد من «أخيه» ان يزوره في قصر الخلافة ليعقد له لواء الامارة . إلا ان الخبث الشعوبي لم يفارق الوزير المتآمر . جاء إلى القصر ومعه ألف فارس مدّجج بالسلاح . تصوّرا! كان بإمكانه ان يقتل الرشيد ويستولي على قصر الخلافة ، إلاّ ان الرشيد كان قد اعدّ للأمر عدته . أقام سبعة أسوار داخل القصر . عند السور الأول ، طلب الحرّاس من جعفر ان يبقى نصف فرسانه في الخارج ويدخل بالنصف الباقي . دخل جعفر مطمئناً إلى قوة الفرسان الباقين معه . عند السور الثاني ، استبقى الحراس عدداً من الفرسان خارج السور . وعند السور الثالث ، والسور الرابع ، وهكذا . عندما دخل جعفر من بوابة السور السابع دخل بمفرده . لم يجد نفسه أمام الخليفة . وجد نفسه أمام مسرور السياف . انهار الشعوبي القذر وبدأ يبكي ويتوسل كالطفل . عاش متآمراً ، ومات جباناً .

ينطلق همّام ، فجأة ، في ضحك مرتفع يهتز معه جسمه كله . يهدأ الضحك تدريجياً ، ويقول :

– تصوّر المنظر! بدلاً من الخليفة وجد السيّاف ، وبدلاً من لواء الامارة وجد السيف .

يحاول يوسف تصور المنظر الدامي ، إلا ان صوت همّام يقطع خواطره :

– خائن متآمر شعوبي قذر! لقي المصير الذي يستحقه كل الخونة القذرين . الكلاب التي تنبح اليوم في الخارج سوف تلقى

المصير نفسه .

يصمت همام ، ويخطر ببال يوسف ان يصمت مفكراً في رؤوس الكلاب المتطايرة ، إثرْ لقائها بسرور السيّاف . بعد عدة دقائق من الصمت والتدخين ، يقول همّام :

- الشعب النهرواني لا يحترم إلاّ الزعيم القوي ، الزعيم المناضل ، الزعيم الثوري ، الزعيم الذي لا يخاف ، الزعيم الذي يجسد ارادة الأمة في شخصة ، الزعيم الذي يسكن التأريخ كلّ ذرّة من ذراته . امّا الحثالات البشرية . . .

لا يكمل همّام الجملة ، ويقول يوسف :

- للاسف ، سيادة الرئيس ، كثيراً ما ينجح هؤلاء في اجتذاب الرأي العام الغربي ، وحتى الحكومات الغربية .

يردّ همام على الفور :

- ومن يقيم وزناً للرأي العام الغربي؟ ومن يهتمّ بالحكومات الغربية؟ يجب ان تعرف ان الغرب الرأسمالي أصبح متفسّخاً فاسداً لا تعنيه سوى مصالحه المادية . أعطْ أي حكومة من حكومات الغرب صفقة وسوف تلتقطها كما يلتقط الكلب الجائع عظمة ، ويكفّ عن النباح . الغرب اسطورة خلقناها وصدّقناها . الغرب أعجز من ان يخيف حكومة وطنية ثورية .

- أخشى ، سيادة الرئيس ، ان الغرب ليس بهذا الضعف . لقد عشت في الغرب فترة طويلة ، وأعرف ان الغرب قادر على حماية

مصالحه ، وبالقوة العسكرية الغاشمة إذا اقتضى الأمر .

- يوسف! للغرب وجهان ، الوجه الذي رأيته أنت ، والذي يعكسه الإعلام الغربي ، والوجه الحقيقي . أنا أعرف الوجه الحقيقي بكل تفاصيله . الأسلحة المحظورة في العلن تباع لنا في السّر . الذين يطالبوننا بوقف اطلاق النار في النهار يحثوّننا على استمرار الحرب في الظلام . الساسة الذين يهاجموننا في البرلمان يقولون كلاماً مختلفاً لسفرائنا . رؤساء الحكومات الذين يتشدقون بحقوق الإنسان يجيئون هنا ولا يبحثون معي شيئاً سوى عقود النفط . لم يبحث كلب واحد منهم معي حقوق الانسان .

يبصق همّام على العشب ، ويقول :

- الغرب انتهى . المسألة مسألة وقت . المستقبل للزعماء الأقوياء . لم يبق في الغرب زعماء أقوياء . لم يبق سوى ساسة متعفنين فاسدين همهم الوحيد لعق العظام .

***

تتأمّل يُسرى باسم شقة «بارك لين» ، وتقول :

- بدأت أحبّ هذه الشقة . ولكن متى نلتقي في دار السكن؟

- ولماذا دار السكن؟

- حبّ الاستطلاع . حضرت عدة حفلات هناك .رأيت غرف

الاستقبال ، وغرفة الطعام . أعتقد أنني رأيت الطابق الأرضي كله .
واريد ان أرى المنطقة المحظورة : جناح صاحب السعادة .

- وماذا تتوقعين أن تري هناك؟

- لا أدري . أريد اكتشاف المكان .

- سوف يخيب ظنّك . غرفة النوم أصغر من غرفة النوم في هذه الشقة ، والحمّام هناك ، نصف الحمّام هنا .

- ومع ذلك فأنا . . .

يقاطعها :

- يُسرى! أنت لا تريدين ان تري الجناح . أنت تريدين أن تظهري معي ، هناك ، على الملأ ، امام العاملين والعاملات في دار السكن .

يحمّر وجه يسرى ، وتقول .

- ولم لا؟ هل أنا فضيحة؟ هل تخجل ان يشاهدك الناس معي؟

- حبيبتي! أنت لست فضيحة . انت أجمل كاتبه وشاعرة في لندن ، وربّما في الدنيا كلها .

- اذن . . .

- قلت لكِ ، مراراً وتكراراً ، أني لا افّكر في نفسي أو في سمعتي . أفكر فيك وفي سمعتك .

- ملكي أكثر من الملكة؟!

- ربّما . انت لا تعرفين لندن كما أعرفها .

- عشتُ في لندن قرابة عشر سنوات . أعتقد أني اعرفها جيداً .

- لا اشك في ذلك . إلاّ أن هناك جوانب من لندن لا تعرفينها .

- جناح صاحب السعادة؟!

يضحك يوسف ، ويقول :

- لا! هناك جوانب سوداء مظلمة ، قاع المدينة كما يقولون ، تعيش فيها مخلوقات غريبة ، لا هي بالحيوانية ولا هي بالبشرية ، ولا هي بالشيطانية ، مخلوقات تتقن فن الخداع ، تتقن الإبتزاز ، وتتاجر بالأرواح البشرية . صدّقيني! في لندن جوانب تجعلها اكثر المدن رعباً في الدنيا .

- يوسف! لا داعي لحشد هذه التبريرات . سوف نلتقي هنا . انس الموضوع!

- هل تستغربين إذا قلت لك ان معظم العاملين في المنزل يتجسّسون عليّ لصالح جهات لا تهمّها مصلحتي؟

- ولماذا لا تغيّرهم؟

- أغيّرهم ، بعد ان عرفتهم ، وأبدأ من جديد؟!

- وما دخلي أنا بجواسيسك؟

- يُسرى! هؤلاء الجواسيس لهم صلة بالمخلوقات التي حدثتّك عنها قبل قليل . تستطيع هذه المخلوقات جعل حياتك صعبة ، صعبة جداً . لماذا لا نغيّر هذا الموضوع التعيس؟! أسمعيني آخر قصائدك التي لا يفهمها أحد .

- عفواً؟! طبعت ديوانين نفدا من الأسواق . لو لم يفهم القراء

قصائدي لما نفدا .

- آه! يُسرى! السبب الصورة! صورتك المثيرة على الغلاف . والعنوان المثير .

- لم يكن عنوان أيّ من المجموعتين مثيراً .

- «للشبق في عينيك موعد» اسمٌ مثير جداً .

- لا أقصد الشبق بمعناه اللغوي .

- القارئ لا يعرف مقصدك . يعرف الشبق! امّا الاسم الثاني «لك . . إلاّ جسدي» فهو .

تقاطعه :

- هل كنت أستثني الجسد من المعادلة لو كنت أريد عنواناً مثيراً .

- يُسرى! لو كان لديوانك هذا اسم آخر لما اشتريته .

- ولكنني اهديتك نسخة .

- اشتريته قبل ان تصلني هديتّك ، صدقيّ أو لا تصدقيّ . كما اشتريت الديوان الأول بمجرد صدوره .

- يوسف! حبيبي! أحياناً ، اتخيلّ انك تتّذوق الشعر وتحبّه .

- ما هذا التعليق الظالم؟ طبعاً ، أتذوق الشعر . هل تريدين أن أقرأ لك قصيدة للسموؤال أو لأليوت؟

- لماذا لا تقرأ لي قصيدة من قصائدي؟

- قصائد هذه الأيام ، الشعر المنثور ، يصعب حفظها . وفوق

ذلك ، فأنا احبّ ان أسمع شعرك بصوتك . رجاءاً!

تفكّر يُسرى قليلاً ، ثم تخرج ورقة من حقيبة يدها ، وتقول :

- هذه القصيدة عن إنسان تعرفه .

- الغيرة ستقتلني ، ولكن أقرأي .

تبتسم يُسرى ، وتبدأ في القراءة :

- كنتُ خارجة من بخور الزمن . .

بساقيْ بلقيس . .

وعيون الزرقاء . .

وكنتَ تحاول الإختفاء . .

في ضبابِ الرغبة المحايدة . .

أعرفُ ما تريد . .

حتى عندما تتحدّث ، كعرافة «دلفى» ،

بالطلاسم . .

تريد أن تشرب ما في الكأس . .

دون أن تلمسها بأناملك . .

تريد أن تأكل التفاحة المُحرمّة . .

دون أن تأكلك الخطيئة . .

تريد أن تمتلك جسدي . .

دون أن أمتلكك . .

أيها الجبان !

تريد . .

تقاطعها الضمة العنيفة ، وتستسلم للقُبلة .

***

. . . في اجتماعي الأخير مع قادة المعارضة النهروانية لم أجد لديهم أيّ جديد . «نفسي!» . «نفسي!» . لا تزال للفوارق الطائفية والعرقية والاقليمية الكلمة الأولى والأخيرة . كل واحد من هؤلاء يريد الحكم لنفسه ، والتحكمّ لفئته . لا توجد بينهم شخصية واحدة تستقطب أيّ ولاء خارج الطائفة أو خارج الإقليم . سوف أستمر ، بطبيعة الحال ، في إعطائهم الدعم المعتاد . وسوف اشجعّهم على إحداث المزيد من الضجيج . ولكنني لن أستمع إلى نصائح أصدقائنا الأمريكيين والبريطانيين بالإكتفاء بالعمل السياسي . في وقت لاحق سوف أجتمع مع لواء سابق في الجيش النهرواني سيجئ ، خصيصاً ، من الدانمرك لمقابلتي . هذا اللواء لديه إتصالات هامة في قلب الجيش وفي قلب العشيرة الحاكمة . سوف اوافيكم بكل ما يستجد . . .

(من تقرير سرّي ارسله
يوسف الفلكي إلى وزير
الدفاع بالكوت)

***

دخل يوسف قاعة الاجتماعات في سفارة دولة الشواطئ العربية مبتسماً، وصافح زملاءه السفراء العرب، بادئاً بصديقه، عميد السلك الدبلوماسي العربي نافع الذيابي. بخلاف إجتماعات السفراء العرب في عدد من العواصم الأجنبية، تمتاز اجتماعات السفراء العرب في لندن بالمودّة والحرارة. يعتقد يوسف أن للسفراء العرب في لندن من الخبرة ما يجعلهم يدركون أن نقل الخلافات العربية إلى لندن يشوّه سمعة العرب، ولا يخدم غرضاً. ويعرف يوسف أن للسفراء العرب في لندن من الحكمة ما يجعلهم يعرفون ان دور السفير العربي في صنع القرار السياسي العربي لا يكاد يوجد، وأنه من العبث أن يختلف السفراء حول قرارات لم يكن لهم يد في صنعها.

بدأ العميد الإجتماع بكلمة رحبّ فيها بالزميل الجديد، سفير دولة الجزر العربية، ثم إنتقل إلى جدول الأعمال. نافع الذيابي، رجل الأعمال اللامع الذي قبل ان يكون سفيراً استجابة لرغبة من حكومته، يدير الإجتماع بحّد أدنى من التدخّل، وحدّ أقصى من الدماثة والصبر. استغرقت الجلسة قرابة ساعتين، واتخذ السفراء عدداً من القرارات تشمل دعم مجموعة من المنظمات العربية العاملة في بريطانيا، ودعوة بعض الساسة البريطانيين من الحكومة والمعارضة إلى حفلات غداء وعشاء، وتشكيل لجنة تدرس فكرة إقامة مهرجان عربي ثقافي فنيّ يجوب مُدن بريطانيا.

خرج السفراء، وبقي يوسف، كالعادة، لتبادل بعض الأحاديث

الضاحكة مع العميد . إلاّ ان صديقه لم يكن في مزاج ضاحك . أخذ يوسف إلى مكتبه ، وطلب من سكرتيرته ألاّ تسمح بأيّ إتصال .

حاول يوسف أن يبدّد العُبوس الجادّ الذي احتلّ وجه صديقه :

- أبو منصور! ما حكايتك اليوم؟ ما هذا التجهّم؟ كانت الجلسة ممتازة .

- هناك موضوع يخصّك ، ويقلقني جداً .

- بعني في السوق ، ولا تقلق .

- أبيعك في السوق؟! من سيشتريك يا يوسف؟!

- الكثيرات! الكثيرات!

يبتسم صديقه ، ويقول :

- حسناً! سوف افكّر في هذه المسألة . قل لي الأن : هل تعرف السير ويليم لونج؟

- بطبيعة الحال ، كان سفير بريطانيا لديكم .

- هل تعرف أين يعمل الآن؟

- في مركز البحوث الاستراتيجية . ما علاقة كلّ هذا بي؟

- انت تعرف أن هذا المركز ما هو سوى . . .

يقاطعه يوسف :

- غطاء أكاديمي تختفي وراءه وزارة الدفاع ، والأجهزة الامنية المختلفة . لا أزال أجهل سر قلقك .

- إصبر ، وما صبرك إلاّ بالله! قبل ليلتين ، تعشّيتُ مع السير

ويليام . صدّق أو لا تصدّق ، كان معظم الحديث عنك .

- عني؟! أنا أعرف السير ويليام ، ولكن المعرفة لا تصل إلى حدود الصداقة .

- السير ويليام معجب بك جداً ، ومعجب بنشاطاتك ضدّ همّام بوسنّين ، ويتابعها بدقّة .

- هذا شيء يسرّني .

- ما لا يسرّني أنا هو قلقه الشديد عليك .

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنه قلق على حياتك .

يضحك يوسف .

- حياتي؟! الأعمار بيد الله يا رجل!

- صحيح : إلاّ ان الحذر واجب .

- أنت تعرف ، يا أبو منصور ، أني اتبع كل قواعد السلامة . السيّارة مصفّحة ، والحارس الذي يرافقني يحمل ، في مخالفة صارخة للقانون البريطاني ، مسدّساً . وهناك حراسة مستمرة على السفارة وعلى دار السكن . وأنا لا أتبع نفس الطريق مرتين . ولا أخرج من البيت أو المكتب في نفس الموعد . ماذا استطيع أن أفعل غير هذا كلّه؟!

يبتسم نافع إبتسامة ذات معنى ، ولا يقول شيئاً . يبتسم يوسف ، بدوره ، ويقول :

- فهمت! فهمت! تقصد المواعيد النسائية . حتّى هذه أحاول جهدي . . .

يقاطعه نافع :

- اضحك على غيري! رأيتك بنفسي عشرات المرّات في عشرات المطاعم . هل تعتقد انك نجحت في خداع أحد؟

- الحقيقة . . .

يقاطعه صديقه مجدّداً :

- الحقيقة أنّه لا يهمّك أن يراك أحد . هذا ليس موضوعنا . ما يقلق السير ويليام ، ويقلقني أكثر ، هو وصول معلومة مؤكدّة إلى الأجهزة البريطانية مؤداها أنه صدرت ، مؤخراً ، تعليمات مشدّدة من همّام بتكثيف الجهود لإغتيالك .

- عن أيّ الأجهزة البريطانية تتحدث؟ MI6؟ أو MI5؟ أو الفرع الخاص؟ أو الأمن الدبلوماسي؟

- يوسف! أنا لست ، مثلك ، خبيراً في هذه الأمور . صدّقني ، أنا لا أعرف الفرق بين هذه الأجهزة .

- هل تريد أن أوضحه لك؟

- لا . علمٌ لا ينفع ، وجهالةٌ لا تضرّ .

- لماذا لم تقم هذه الأجهزة بنقل المعلومة لي مباشرة وأنا على اتصال دائم بها كلّها؟ لماذا احتاجوا إلى وساطة السير ويليام؟

يبتسم نافع :

- الا تعرف أصدقاءنا البريطانيين؟ هل نسيت كيف يفكّرون؟ عندما ينقلون اليك ، مباشرة ، معلومة كهذه يصبحون مسؤولين ، مباشرة ، عن سلامتك أمّا الآن . . .

يضحك يوسف :

- الآن وصلتني المعلومة دون أن يلتزموا بمسؤولية . هل قال السير ويليام شيئاً غير نقل المعلومة؟

- قال أنه لو كان مكانك لكان أكثر حذراً ، خصوصاً في التعامل مع . . .

لم يمهله يوسف :

- نافع! أخي! حبيبي! النساء مصدر السعادة الوحيد في الحياة ، في حياة كلّ إنسان . فكرٌ قليلاً! كلّ ما يفعله الواحد منا يفعله بحكم الواجب ، أو بحكم العادة ، والعادة كثيراً ما تتحول إلى واجب . نفعل عشرات الأشياء ، مئات الأشياء ، الآف الأشياء ، بسبب الواجب . نردّ على المكالمات ، نزور المرضى ، نستقبل القادمين ، نودّع المسافرين ، نحضر المؤتمرات ، نتحدّث في المنتديات ، نكتب المذكّرات ، نقابل الصحفيين ، نتحمّل ثقلاء الدم ، نصبر على رؤسائنا ومرؤوسينا . انت تعرف القائمة التي لا تنتهي . هل في هذه التصرفات تصرف واحد يثير البهجة أو السعادة في النفس؟ فكّر قليلاً! في هذه الدوّامة الخانقة من الإرتباطات لا توجد أيّ سعادة ، لا توجد أيّ متعه ، إلاّ في صحبة امرأة جميلة تشتهيها أنت ، وترغب هي فيك .

يتنهد نافع ، ويقول :

ـ أحياناً اغبطك . «الا ليت الشباب» .

– مشكلتك ليست فقد الشباب . مشكلتك الخوف من أم منصور .

يضحك صديقه من الأعماق ، ويقول :

– صدقت . و«من خاف سلم»!

– و«من راقب الناس مات همّاً»!

عند باب السفارة الخارجي ، فوجئ يوسف بصديقه يعانقه بحرارة بدلاً من المصافحة المعتادة هل أصبحت الأمور خطرة إلى هذه الدرجة؟!

***

. . . عندما انتهى الحلم ، قبيل الفجر ، أدركت أن النوم لن يعود . غريب أمر هذا الحلم . هل سيّظل يتبعني بقية حياتي؟ ولماذا لا يتغيّر قليلاً؟ لماذا لا تتبدّل بعض التفاصيل؟ لماذا لا يتحوّل ضيفاً يزور مرة كل شهر؟ أو مرة كل اسبوعين؟ أو مرّة كل سنة؟ ولماذا يغيّر ليلة الزيارة كل اسبوع؟ لماذا يختار ليلة مختلفة كل اسبوع؟ عجيب أمر هذا الحلم . أعرف أنه يجيء من عقلي الباطن ، ولكني لا أعرف كيف اتخلصّ منه (هذا إذا كنت حقاً اريد التخلصّ منه) . كيف أغيّر

خارطة عقلي الباطن؟ حتى البروفسور السير برنارد كينج ، الطبيب النفسي الشهير ، الذي قضيت عدة ساعات أناقش معه الحلم لم يستطع أن يقول شيئا يتجاوز الشعور الخفيّ بالندم ، وعقدة الذنب المكبوتة . إلاّ أنّ شعوري بالندم ليس خفيّاً . شعوري بالندم واضحٌ وضوح الشمس ، واضح لي على أيه حال ، وربّما للآخرين . وعقدة الذنب التي تسكنني تتمتع بحريه لم تتمتع بها عقدة في التاريخ . ومع ذلك يجيء الحلم بإنتظام . ناهد ، في ثوب الزفاف ، بقربي علي سرير ليل الزفاف ، تقبّلني وتقول : «حبيبي! أنا أعرف كل شيء . وأصفح عن كل شيء» . ثم تختفي . لا تقوم وتمشي وتفتح الباب . تختفي فجأة . وأصحو لاهث الأنفاس ، مضطرب القلب ، بارد المفاصل . أهرب إلى مفكّرتي . أعترف لناهد ، التي تعرف كل شيء ، بكلّ شيء . وأبدأ كتابة الرسالة :

حبيبتي ناهد

... ...

(من المفكّرة الشخصية

ليوسف الفلكي)

***

بمجرد مغادرة الفرّاش الأنيق المكتب يرتشف الزائر القهوة بصوت مرتفع، ويقول :

- منذ مدة، سعادة السفير، وأنا اتطلّع إلى مقابلتك. لا تتصوّر مدى اعجابي بنشاطك الدبلوماسي في العاصمة البريطانية.

يدرك يوسف انه قد يعاني الكثير من الهراء قبل ان يصل الزائر إلى هدفه الحقيقي، ويقول بأدب :

اشكرك. واعتزّ بهذه الشهادة التي تجيء من صحفي بارز لا تخفى مكانته على أحد.

يبتسم سمير بطاشّ، الذي يعرف ان مكانته الصحفية لا توجد إلاّ في عالم الأوهام، ويقول :

- هذا من لطفك، سعادة السفير، ومن كرمك.

يحاول يوسف ان يختصر الحوار، ويقول :

- مشكلة لندن، يا استاذ سمير، ان الانسان فيها مشغول طيلة الوقت، من مناسبة إلى مناسبة، ومن موعد إلى موعد.

يلتقط الضيف الاشارة، ويردّ :

- صحيح، صحيح، سعادة السفير! انت تعرف أن الكوت، هذه الدولة النبيلة العظيمة، تتعرّض لهجوم يومي في الصحافة العربية المهاجرة. ونحن في جريدة «الصوت الصادق» نحاول التصدّي لهذا الهجوم بمواردنا المحدودة.

يستمع يوسف، صامتاً، ويواصل الضيف :

- وهذه الموارد ، سعادة السفير ، توشك ان تنتهي . أمامنا عروض مغرية جداً من جهات معادية للكوت ، جهات يعرفها سعادتكم ، ولكننا نرفض هذه العروض . نحن نفضّل ان نتعامل معكم .

يستمر يوسف في صمته ، ويواصل الصحفي الحديث :

- نحتاج إلى مليون جنيه لتطوير «الصوت الصادق» . وأعاهدك ، سعادة السفير ، ان الجريدة ، بعد تطويرها ، وتقويتها ، سوف تكون مكرّسة للدفاع عن الكوت وأهلها الكرام .

ينهض يوسف ، ويمدّ يده لضيفه :

- سوف اتصل بحكومتي ، وأخبرك بما سيتم .

لا يبدو الضيف سعيداً بهذه النهاية . يظل ممسكاً بيد مضيفه ، ويقول :

- أرجو ، سعادة السفير ، أن تخبر حكومتك المُوقّرة أننا سوف نكون مضطرين ، مضطرين لا راغبين ، إذا لم نتلق منكم الدعم ان نقبل دعم الآخرين .

يصحب يوسف ضيفه إلى الباب ويودّعه بلا تعليق .

يوسف ، الذي يشارك حكومته رأيها أن لا توجد سياسة ناجعة مع المبتزّين سوى اهمالهم ، لا ينوي ان يبلغ حكومته باللقاء . إلا انه لا يستطيع ان يمنع نفسه من الابتسام وهو يتذكرّ الرقم المطلوب : مليون جنيه! دائماً وأبداً ، مليون جنيه . لا تزيد ولا تنقص! مليون جنيه! العملة الوحيدة التي يعترف بها المبتزّون الصحفيون في لندن .

***

بعد انتهاء عبارات المجاملة المتبادلة ، التفت الزائر ، ناظم حكيم ، إلى يوسف ، وقال :

- سعادة السفير! أعتذر لأني طلبتُ موعداً عاجلاً وألححت في الطلب . هناك معلومة هامة جداً تتعلّق بك شخصياً .

نظر يوسف إلى المعارض النهرواني البارز مبتسماً ، وقال :

- صدرت تعليمات مشددّة من صديقنا المشترك همّام بو سنيّن بمضاعفة الجهود لإغتيالي .

بدت الدهشة على ملامح الزائر الذي قال :

- عجيب ! كيف وصلك الخبر؟ لم أعرف هذه المعلومة إلاّ بالأمس ، وقد وصلتني من مصدر خاص داخل قصر الرئاسة . المفروض ان تكون هذه التعليمات سريّة جداً .

- أنت تعرف صديقنا همّام كما أعرفه . أودّ أن اسألك : هل تعرف كيف ينتج السحر مفعوله؟

يقول ضيفه مستغرباً :

- السحر؟! ما علاقة السحر بالموضوع؟

- اثبتت عدة دراسات جامعية عن السحر في المجتمعات البدائية أنه لا يمكن للسحر ان ينجح ما لم يعرف الضحية أنه مسحور . اول ما على الساحر ان يعمله هو أن يجعل المسحور يعرف انه عرضة للسحر . بمعنى آخر ، الذي لا يعرف أنه مسحور لا يتأثر بالسحر . أخي ناظم!

هل رأيت انساناً لا يؤمن بالسحر يقع ضحية للسحر؟ على أية حال، لا يهمني السحر في كثير أو قليل. تهمّني الفكرة. لكي ينتج الرعب اثره المطلوب يجب ان يشعر ضحيّة الرعب بالخطر. الذي لا يعرف ان هناك مؤامرة لإغتياله ينام قرير العين. امّا الذي يعرف ان هناك من يحاول قتله فسوف يموت ألّف مرّة قبل الموت الحقيقي.

رنّ صوت التيليفون ورفع يوسف السمّاعة، وقال بغيظ لم يحاول إخفاءه.

- ليلى! انت تعرفين ان لديّ زائراً مُهمّاً.

جاءه صوت ليلى معتذراً:

- آسفة! ولكن معي قناة «كل العرب» الفضائية. انت تعرف...

قاطعها:

- سوف اتحدّث مع القناة.

أصغى يوسف بإهتمام، ثم قال:

- حسناً! الليلة! قرب «الدورشستر». الثامنة.

وضع يوسف السمّاعة، وقال لضيفه:

- كل يوم مقابلة مع هذه القناة أو تلك. كل يوم! والآن يريدون مقابلة أمام «الدورشستر». ماذا بوسعي ان أفعل؟ سأقابلهم امام «الدورشستر». لنعد إلى حديثنا. صديقنا همّام خبير في الرعب. لا يكفيه أن يأمر بقتلي. يجب ان يتأكد ان الأمر قد وصل إلى سمعي

وقد وصل .

- مـاذا بوسـعي ان أفعل ، سعـادة السـفـيـر؟ أنا وحـزبي تحت تصرفك .

- شكراً جزيلاً . نحن نموت عندما يشاء الله لا عندما يأمر همّام .

- سوف ابلغك بكل جديد اسمعه .

- اشكرك . وادعو الله ان يحميك ويحمينا .

***

تبتسم سوسن رشاد ، نجمة قناة «كل العرب» ، وتقول ليوسف :

- عندما قلت لي قرب «الدورشستر» خشيت انك تقصد ان نلتقي في الفندق نفسه .

- سوسن! اجريت معي هنا ثلاث مقابلات وتعرفين المكان . كان معي زائر ولم استطع ان اتحدّث بوضوح .

- هذا ما اعتقدته . اودّ ان اعتذر عن ازعاجك . لم يكن امامي خيار . هناك شيء خطير جداً لا بد أن تعرفه على الفور .

يوسف ، الذي يدرك ان سيسمع أخبار اغتياله القادم للمرة الثالثة ، لا يوّد ان يجرح مشاعر ضيفته :

- سوسن! أنا اعتبر كل شيء يدفعك إلى لقائي امراً ذا أهميّة تاريخية .

- حسناً! لا وقت للمقدمات! سمعت معلومة أقلقتني ، ودفعتني دفعاً إلى الاتصال بك في المكتب .

- سوسن! يسعدني ان تتصلي بي في أيّ مكان .

- كنت ، البارحة ، اجري لقاءً مع السيد شمس النجمي المعارض النهرواني . . .

يقاطعها :

- أعرف فضيلة السيّد معرفة وثيقة .

- هذا ما قاله لي . بمجرّد انتهاء المقابلة ، طلب ان يراني على انفراد . الواقع انني دهشت بعض الشيء . لماذا يريد عالم الدين المعروف ان ينفرد بي؟ ذهبت معه إلى صالة انتظار كانت خالية وقتها . بدون تمهيد ، قال لي أن حياتك في خطر . قال إنه حاول الاتصال بمكتبك لتحذيرك إلاّ أنه لم يستطع ترتيب موعد . قال انه يملك معلومات مؤكدّة تقول ان الزعيم النهرواني أمر باغتيالك ، وان يتّم الأغتيال في اسرع وقت ممكن .

- سوسن! عزيزتي سوسن! لا تقلقي . الزعيم النهرواني أمر بإغتيالي منذ مدة طويلة . حقيقة الأمر ، أنه يصدر ، بإنتظام ، وبصفة دورية ، أوامر بإغتيالي .

- ولكن ماذا عن الأمر الجديد؟ ماذا تنوي ان تفعل؟

- ماذا تقترحين ان أفعل؟

- ان تسافر ، بطبيعة الحال . ان تعود إلى بلادك . ان تغادر لندن

فوراً .

- سوسن! رغم ثقافتي الأدبية المحدودة التي غرقت في محيطات السياسة لا أزال احفظ ، منذ أيام الدراسة الثانوية ، بيتي شعر للإمام علي بن ابي طالب :

أيُّ يـومـيٍّ مـن المـوتِ أفْــــــرّ؟ .
يوم مــــا قُــــدِرّ . . أو يومُ قُــــدْرْ
يَـوْمَ مــــا قــــدّر . . لا أرهبــــهُ
ومن المقـــدور لا ينجي الحَــذَرْ .

هل يستطيع أحد ان يفّر من الموت؟!

- سعادة السفير! لا اتحدث عن الفرار من الموت وهو مصيرنا جميعاً! أتحدّث عن الفرار من مؤامرة للإغتيال .

- سوسن ! الم تفهمي البيتين؟

- فهمت ، والله! ، ولكن ، سعادة السفير ، الإتكال . . .

يقاطعها ضاحكاً :

- سعادة السفير! سعادة السفير! إلى متى هذه الاسطوانة؟ متى نصبح صديقين؟ الم اطلب منك ، عدة مرات ، ان تسمّيني يوسف؟

تحمّر وجنتا سوسن ، وتقول :

- يوسف . . .

تتلعثم ، وتضيف :

- اعني سعادة السفير . . . اعني يوسف . . . يوسف!

يوسف ، الذي لم تتجاوز علاقته بسوسن الغزل البرئ رغم سنتين من المعرفة ومن المحاولات الدائبة لتجاوز مرحلة الصداقة الافلاطونية ، يبتسم . علمتّه التجارب الطويلة انه يندر ، ان لم يستحل ، على امرأة ترفض ان تسمّيه بإسمه الأول أن تشاركه المخدع . ينظر إليها بشوق ، ويقول :

- نعم ، يا حبيبتي!

تزداد حمرة الوجنيتن حدّة ، وتهمس :

- يوسف! لا بُدّ من الحذر . لا اودّ ان تموت . لا اودّ ان أفقدك . انت لا تعرف مكانتك عندي .

- ما أجمل الموت الذي يجعل دمعة واحدة تنسكب من عينيك الساحرتين حزناً عليّ . آه! كم اتمنى ان تسرع الرصاصة . .

تقاطعه :

- لا! لا! يوسف! لا تُغرِ القَدّر ، كما يقولون هنا .

- حسناً! لا يحتاج القدر إلى أغراء ولا ينفع مع القدر إحتياط . اريد ان اعرف شيئاً واحداً : هل ستفتقدينني حقاً ، لو حدث لي شيء؟

- سوف افتقدك كثيراً! اقسم لك .

- إذن لماذا لا تغتنمين فرصة بقائي القصير على ظهر الأرض لاصطياد لحظات تتحوّل إلى ذكريات جميلة بعد غيابي؟

يبدو ان سوسن فوجئت بالقبلة التي حطّت على شفتيها بدون إنذار مُسبّق . إلاّ ان المفاجأة ، إن وُجدتْ ، لا تقارن بالدهشة المنتشية

التي هزتْ يوسف عندما وجد شفتيها تتجاوبان بحرارة . يفكر يوسف ، وفمه على فمها ، أنه حتى في سحابة الاغتيال الداكنة توجد بطانة فضيّة ، كما يقولون هنا!

***

في دار السكن الفخمة الواقعة في شارع «هولاند بارك» في الجزء المُسمّى «صف أصحاب الملايين» ، يشرب يوسف الشاي ، ويتأمل ضيفه ، نيكولاس بورتمان ، الكاتب البريطاني المعروف الذي يجمع معلومات لكتابه القادم عن همّام بو سنيّن ، ويقول :

- نيكولاس! هذه هي المقابلة الثانية . الم تقتنع بعد أنه لا يمكن لمخلوق مثل همّام أن يكون له أصدقاء حقيقيون؟

- كل التقارير التي اطلعت عليها تؤكّد انك كنت صديقه .

- التقارير لا تعرف الحقيقة ؛ أنا الذي أعرفها . كانت علاقة همّام بي لا تُقارن بعلاقته بأيّ سفير آخر ، حقيقة الأمر أنّه لم يكن يقابل السفراء إلاّ في النادر ، أو بأي مسؤول أجنبي . كل هذا صحيح ، ولكنني أكذب عليك إذا قلت اننا كنا صديقين .

- كان ، اذن ، يستلطفك؟

- هذا ما كان يبدو ، وكنت ، بدوري ، استلطفه .

- تستلطف هذا الوحش الآدمي الدموي . .

يقاطعه يوسف :

- أعفني من المحاضرات! كانت الكوت مُعرّضة للخطر ، وكانت سلامتها فوق أي اعتبار .

- السيد السفير! لم اكن اقصد اهانتك .

- لا أشعر بالإهانة . النقطة التي كنت احاول ايضاحها ان العلاقة بين همّام وبيني لم تتجاوز ، بأي حال ، حدود الاستلطاف المتبادل .

- حسناً! حسناً! فلننتقل إلى بعض التفاصيل . هل كنت تراه بإنتظام؟

- كنت اراه كلما طلب رؤيتي .

- أعني معّدل المقابلات .

- مع همّام لا توجد معدّلات . كنت اراه ، احياناً ، كل ليلة . وتمر ، أحياناً ، اسابيع دون أن اراه . همّام كان ، ولا يزال ، حريصاً على ألاّ يتمكن أيّ إنسان من توّقع أيّ تصرف يقوم به ، حتى الأشياء العادية كمقابلة سفير . همّام هو رئيس الدولة الوحيد في العالم الذي لا يُنشر شيء ، أيّ شيء ، عن ارتباط من ارتباطاته إلاّ بعد انتهائه وهو رئيس الدولة الوحيد ، في التاريخ ، الذي لا ينام ليلتين متتاليتين في مكان واحد .

- سمعت عن موضوع النوم هذا من عدة مصادر ، ولم أصدّقه . هل بإمكانك ان تؤكدّه؟

- بلا تردد .

- ولكن الأمر يبدو مستحيلاً . من اين يعثر على سكن جديد كل ليلة؟

- لم أقل ان هناك مكاناً جديداً كل ليلة . لديه عدة قصور . وعشرات الاستراحات ، وعشرات المخابئ ، بالاضافة إلى مئات الاماكن التي تملكها الأجهزة الأمنية وسط الاحياء العادية . أحياناً ، ينام في مكان ويعود إليه بعد اسبوع أو اسبوعين ، واحياناً لا يعود إليه أبداً . خلال حرب تحرير الكوت ابتكر اسلوباً جديداً . كان ، كل ليلة ، يختار مسكناً عادياً لمواطن عادي ، وينام في غرفة من غرف المسكن .

- اذن ، فما يقال عن احتياطاته الأمنية غير مبالغ فيه؟

- اسمع! كل ما تسمعه عن هذه الاحتياطات هو أقل من الحقيقة . عندما يخرج في ارتباط رسمي تنطلق من مكان إقامته ستة مواكب ، ولا يكون هو في أيّ منها . يصل ، بعد ذلك ، إلى المكان المقصود في هيلوكبتر ، أو في سيارة أجرة . خلال حرب تحرير الكوت كان يتّنقل في شاحنة يقودها ، ويرتدي الثياب الشعبية التي يلبسها ، عادة ، سائقو الشاحنات . عندما ينوي السفر بالقطار يتم إبلاغ المرافقين بالتوجه إلى المطار . ومن هناك ينتقلون في آخر لحظة إلى محطة القطار . عندما يستعمل الطائرة ، تحط طائرتان رئاسيتان ، من طراز «الجمبو» ، ولا يكون هو في أيّ منهما . قبل نزولهما ، واحياناً بعد نزولهما ، يصل هو في طائرة صغيرة لا توجد عليها أي علامات .

- وماذا عنك؟ كيف كنت تقابله؟ أين؟

- في مركبه النهري . في قصر من القصور الرئاسية . في أي مكان يصدف أن يكون فيه حين يطلب مقابلتي . رأيته في اكثر من اربعين مكاناً ، معظمها فلل عادية كالتي يسكنها افراد الطبقة المتوسطة العليا في سعدباد . لم اره في مجموعة كبيرة إلا مرة واحدة . كان هناك قرابة ثلاثين شخصاً .

يبتسم الكاتب ، ويقول :

- هل بإمكانك ان تحدثني عن هذه المناسبة؟

يوسف ، الذي يدرك أنه اوقع نفسه في فخ ، يصمت قليلاً ، ثم يتنهّد ، ويقول :

- كنت في ضيافة صفوت وحيد ، عضو مجلس قيادة الثورة ، وكان هناك عدد من الضيوف ، رجالاً ونساءً . كان مضيفنا يحتفل بعيد ميلاد زعيمه . وكانت هناك مطربه شهيرة تحيي الحفل . قبيل منتصف الليل ، فوجئنا جميعاً بهمّام يدخل علينا . لم يدخل ، قبل تلك الليلة ، منزل أحد من اعضاء مجلس قيادة الثورة ، واشك أن دخل ، بعدها ، منزل أيٍّ منهم . أجلسني بقربه ، وكان يبدو سعيداً جداً . . .

يقاطعه الضيف :

- هل كانت المطربة التي احيت الحفل شهرزاد ، التي أصبحت عشيقته بعد ذلك؟

يحمرّ وجه يوسف ، ويقول :

- نعم .

- وهي نفس المرأة التي . . .

يقاطعه يوسف بشيء من الحدّة :

- نيكولاس! أنا مستعد للاجابة على كل اسئلتك عن همّام ، ولكني لست مستعداً لاستجواب شخصي .

- السبب في سؤالي هو أنني عرفت . . .

يقاطعه يوسف من جديد :

- أعرف جيداً سبب سؤالك . ولا أنوي أن اجيب .

- حسناً! دعني اسألك ، اذن ، عن علاقات همّام النسائية .

- لا أعرف التفاصيل ، ولا أعتقد أن أحداً ، غيره ، يعرفها ، ولكن بوسعي أن اعطيك المبدأ الذي يحكم نظرة همّام إلى الجنس وإلى المرأة . هذا الرجل لا يعتبر الجنس وسيلة للمتعه أو اللذة أو الانجاب ولكنه يعدّه فتحاً واجتياحاً وتملكاً . والنساء ، بالتالي ، لسن أدوات متعه أو لذّة أو غرام ولكن مجرد ممتلكات تُغْرى وتفتح ثم تترك . المرأة لم تلعب ، قط ، دوراً يذكر في حياة همّام ولا اظنها ، الآن ، تلعب دوراً كهذا . المرأة شيء هامشي جداً في عالم همّام .

- باستثناء شهرزاد؟!

- باستثناء أمّه ، والحديث عن امّه يطول وعلاقته بأمه معروفة وموثّقة .

– وماذا عن شهرزاد؟!

– لا أدري . اشك أنه يراها اكثر من مرة كل بضعة شهور . جعلتني اتحدّث رغماً عني . . .

يقاطعه ضيفه مبتسماً :

– ما دمنا بصدد شهرزاد ، هناك من يقول أنه رآها ، لاول مرّة ، في الليلة نفسها التي رأيتها انت فيها ، اعني في الحفلة التي تحدثت عنها قبل قليل .

يخفق قلب يوسف بشدّة ، ويأمل ألاّ يلحظ الكاتب الاضطراب الذي اعتراه فجأة ، ويقول :

– لم اكن اعرف ان الحفلة الخاصة لم تكن خاصة .

– سمعت المعلومة من رجل كان قريباً جداً من همّام . وهو الآن في المعارضة .

يوسف ، الذي يشعر برغبة مباغتة في مواصلة الحديث عن شهرزاد ، يسأل :

– قال لك الرجل ان همّام رآها ، لاول مرة ، في تلك الحفلة ، ولم يكن يعرفها من قبل؟

– هذا ما قاله . كانت ، عندما عرفها ، متزوجة ولها طفلة صغيرة . تلّقى الزوج أمراً بتطليقها ، ونُقل إلى وظيفة دبلوماسية في موسكو ، مع تعليمات مشدّدة بعدم العودة . أعتقد أنه لا يزال هناك .

تزداد لهفة يوسف إلى معرفة المزيد :

- وماذا عن شعورها هي نحو همّام؟ هل احبتّه وقتها؟ هل تحبّه الآن؟ هل هي مضطرة . . .

يضحك الكاتب ، الذي يدرك أنه لم يعد بوسع يوسف الخروج من الفخ ، ويقول :

- السيّد السفير! هل انت مستعد للاجابة على طبيعة علاقتك بهمام ، طبيعتها الحقيقية ، وبالذات ما تردّد عن معرفتك المسّبقة بنيته غزو الكوت؟ هذا الجزء يهمّني جداً . تذكّر انك الأجنبي الوحيد الذي كان مقرّباً من همّام . إذا كنت مستعداً للاجابة على اسئلتي ، بصراحة ، فسوف اقول لك كل شيء سمعته عن شهرزاد ، كل شيء!

يصمت يوسف مفكراً . هل بوسع هذا الكاتب ، رغم صلاته وبحوثه ، ان يخبره بأشياء لا يعرفها؟ أشياء غير التي سمعها من شهرزاد نفسها؟ اشياء غير التي نقلتها الاجهزة الاستخبارية في دولته ، وفي الدول الصديقة ، اليه؟ هل بوسع الكاتب ان يعرف الشيء الوحيد الذي يتحرق يوسف إلى معرفته : هل كانت شهرزاد تحب همّام ، أم كانت تخافه؟ يوشك ان يرفض الابتزاز المُبّطن في عرض الكاتب ، إلاّ انّه يتذكر انه لا يخسر شيئاً إذا سجّل للتاريخ ، عن طريق الكاتب وكتابه ، طرفاً من قصّته مع همّام . ومن يدري؟ قد يعرف ما لم يكن يعرفه عن شهرزاد . ينظر إلى ضيفه مبتسماً ويقول :

- نيكولاس! اتفقنا! ماذا تريد ان تعرف؟

- لا يستلطف همّام أحداً بدون سبب ، حتى لو كان جديراً

بالإستلطاف ، مثلك . أريد أن أعرف السبب الحقيقي الذي جعلك ، دون السفراء والمسؤولين الأجانب كافة ، قريباً من همّام .

- هل يمكن ان ابدأ بالنواحي الشخصية؟ هناك ، صدّق أو لا تصدق ، اشياء مشتركة تجمع بيننا ، هوايات مشتركة . هو يحب قراءة كتب التاريخ ، وانا احبّها . دقّته في تفسير التاريخ وتحليله قضية أخرى ، بطبيعة الحال . وهناك هواية مشتركة ثانية ، صيد الغزلان .

يقول الكاتب مستغرباً :

- صيد الغزلان؟! هل لدى همّام وقت لصيد الغزلان؟ واين كنتما تصيدان الغزلان؟

- يجد همّام الوقت لعمل كل ما يريد عمله ، ولا يتسع وقته لشيء لا يريد عمله . انت تعرف انه لم يكن يستلم اوراق الاعتماد من السفراء ويوكل المهمة لنائبه . احياناً ، كان يصل إلى سعدباد رؤساء دول ويرفض مقابلتهم . فيما يخصّ الجزء الثاني من سؤالك ، كنا نصيد الغزلان في الصحراء القريبة من سعدباد .

- هل بقيت غزلان في المنطقة؟

- لا يُسمح لأحد سوى همام بالصيد هناك . ربّما كانت الغزلان تُرَبّى وتطلق ليصيدها . هل تريد ان تعرف أغرب ما في الموضوع؟

- طبعاً .

- كنا نصيد الغزلان من الهيلوكبتر .

- من الهيلوكبتر؟! هل تمزح؟!

- لا أمـزح . من الهـيلوكـبـتـر . ولكن اسـمح لـي ان انتـقل إلى موضـوع آخر . هناك هواية مـشترك ثالثـة ، لعب الورق ، وبالذات لعـبة تُسـمّى في الخليج «الكوت» . الكلمـة مـأخـوذة ، حـرفـيـاً ، من اللغـة الانجليزية وتعني المعطف . الطرف المغلوب هو الذي «يرتدي المعطف» ، يلبس الهـزيمة بعـبارة أخـرى . يلعب اللعـبة فـريقـان ، ويمكـن ان يضمّ الفريق لاعبيْن أو ثلاثة لاعـبين . كـان همّام يفضّل الفريق الـثلاثي ، وكنت ، دوماً ، في فريقه وكنّا نفوز ، في معظم الأحيان .

- هذه اول مرة اسمع فيها ان همّام يلعب الورق .

- هناك اشـيـاء كـثيـرة لا يعـرفـهـا الناس عن همّـام . واشـيـاء اكـثـر يعتقد الناس انها حقائق وهي أوهام . خذ ، مثلاً ، حكاية الشبيه . لا يوجـد شـبـيـه لهـمّام رغم كل مـا تـسـمع من أقـاويل . بـدأت القـصـة بالمواكب السّـتة التي سبق ان حـدثتك عنها . تصوّر البـعض أن لا بُدّ من وجـود شـبـيه لهـمام في كل موكب . بدأت الاشـاعـة صـغيـرة ثم كبرت حتى صدّقها الجميع .

- حسناً! ماذا هناك غير الهوايات المشتركة؟

- هناك الجـانب الأهم ، الأهمّ بمراحل ، وهو الجـانب السـيـاسي . عندما وصلت سـفيراً إلى سـعدباد كان همام في حـالة نفسـية متـرديّة جداً . كـانت حربه مع عجـمستـان تسير من سيء إلى اسوأ ، وكان في حـاجـة مـاسـة إلى الدعم بجـمـيع انواعـه ، العـسكري والمالي والاسـتـخـبـاراتي . تمكنّتُ من تقـديم مـسـاعـدة لا بأس بهـا لمجـهـوده

الحربي .

يضحك الكاتب ، ويقول :

- مساعدة لا بأس بها؟! يا للتواضع! سمعت من عدة مصادر أنك ، بجهودك الشخصية ، أقنعت دولتك بتقديم منحه اضافية له تزيد على ثلاثة بلايين دولار . وهناك من يقول انك كنت تجوب الخليج ، مبعوثاً من دولتك ، لحشد المزيد من الدعم لهمّام . وهناك من يقول انك ، شخصياً ، كنت حلقة الاتصال بينه وبين أجهزة الاستخبارات الغربيّة ، وان كثيراً من المعلومات الحسّاسة وصلت عن طريقك .

يضحك ، يوسف ، بدوره ، ويقول :

- حسناً! حسناً! لا اوّد ان اكذب عليك . هناك شيء من الصحة في هذا كله ، وهناك قدر من المبالغة . ما يهّمنا ، الآن ، أنّه نتيجة لما بذلته من جهود تكوّن لدى همّام ما يشبه الإعتراف بالجميل ، وكان يعبّر عنه بالمعاملة غير العادية التي خصّني بها . يستطيع هذا الرجل ، إذا شاء ان يكون لطيفاً ومهذباً ورقيقاً .

- الم تكن تشعر بشيء من تأنيب الضمير ، أعني الم تكن في قرارة نفسك تحسّ انك . .

يقاطعه يوسف بحدّة :

- اسمع! اسمع! درست السياسة عندكم ، هنا في لندن وفي أحسن كليّاتكم ، كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية ، وعلى يد

أعظم اساتذتكم . لا أزال اذكر كلمات البروفسور جورج لانسكي ، استاذ السياسة الشهير : «في السياسة الدولية ، القيمة الاخلاقية المطلقة هي مصلحة الدولة . لا يوجد معيار أخلاقي أعلى من هذا المعيار . وأيّ مبدأ اخلاقي يهدّد بقاء الدولة او سلامتها يجب ان يطرح جانباً ، بلا تردد» . كانت سلامة الكوت ، وقتها ، تتطلّب ان اتخذ الموقف الذي اتخذته . لو انتصرت عجمستان لتغيرت صورة الخليج كلّه ، وربما صورة المنطقة كلها ، ولكانت الكوت الضحية الأولى للتغيير .

– حسناً! حسناً! أفهم ما تقول . شعور همّام بالجميل ، اذن ، هو الذي دفعه إلى ان يتخذك صديقاً وان يقربك كما لم يقرّب أحداً غيرك .

– يتخذني صديقاً؟! اسمع ، يا عزيزي . الديكتاتور ليس له أصدقاء . الديكتاتور فصيلة خاصة من البشر تختلف ، جذريا ، عن بقية البشر . الديكتاتور ، في حقيقة الأمر ، لا يعتبر نفسه من البشر . الديكتاتور ينظر إلى نفسه نظرة خاصة ، تستطيع ان تسميّها إذا شئت نظرة ميتافيزيقية . الديكتاتور لا يعتبر نفسه مجرّد إنسان من لحم ودم . يعتبر نفسه تجسيداً بشرياً لشيء اسمى وأعلى ، لشيء فوق البشر أجمعين .

– السيد السفير! بدأت أجد صعوبة في متابعتك .

– فكر قليلاً! تأمّل بعض الأمثلة . خذ هتلر . هتلر كان يعتبر

نفسه تجسيداً لقدر الأمة الجرمانية . لم يكن هتلر يؤمن بالله ، ولكنه كان يؤمن ايماناً عميقاً بقدره ، أي بقدر الأمة الجرمانية الذي حّل فيه . ستالين لم يكن يؤمن بالله أو بالقدر ، ولكن كان يعتبر نفسه التعبير البشري عن حتمية التاريخ . من يستطيع ان يهزم حتمية التاريخ؟ موسوليني ، الذي كان كاثوليكياً بالميلاد ، كان يعتبر نفسه انبعاثاً لأمجاد روما القديمة ، روما الوثنية . لم يكن احد من هؤلاء يعدّ نفسه إنساناً عادياً . وبالتالي لم يكن بوسع أحد من هؤلاء تكوين صداقات عادية .

- وهمّام مثل هؤلاء؟!

- لا! صدّق او لا تصدقّ ، همّام اكثر تعقيداً من أيّ منهم وأكثر استعصاء على الفهم . تركيبة همّام النفسية شبيهة بغابة استوائية كثيفة . تجد في الغابة النور والظلام ، الفراشات والافاعي السامة ، الحياة والموت . همّام ملحد على نحو ما ولكنه مؤمن على نحو ما . هو يؤمن ايماناً عميقاً أنه من السلالة النبوية ، رغم ان الكثيرين يشكون في ذلك . كما انه يعتقد اعتقاداً جازماً ان له مكانة خاصة عند الله ، ومع ذلك يرى ان الشريعة الاسلامية قواعد رجعية تجاوزها الزمن وينبغي التخلص منها . همّام يعتبر نفسه عربياً قحّاً ، ولا يرى أيّ تناقض بين هذا الانتماء ، وبين انتمائه المباشر إلى كل حضارة في النهروان سبقت الإسلام . وهمّام يتصور أنه رجل الشعب ، رجل الشارع ، الانسان الذي حقق ما حققه لأنه يؤمن بالجماهير ويناضل

من أجلها . مع ذلك فنظرته الميتافيزيقيه إلى نفسه تجعله يعتبر نفسه كائناً فوق الشعب ، فوق التاريخ ، فوق الزمان والمكان .

- شبه آله؟!

- شيء من هذا القبيل . والتعامل مع كائن كهذا عملية بالغة الخطورة . قد تقضي كلمة طائشة واحدة على حياتك . وما أكثر اعوانه الذين فقدوا حياتهم نتيجة كلمة طائشة واحدة ، حقيقية أو مختلقة .

- الم تكن تشعر بالخوف وانت تتعامل معه؟

- لم أخف على نفسي قطّ .

- أعود إلى السؤال الذي يهمّني : هل تمكنت ، حقاً ، من معرفة عزم همّام على احتلال الكوت؟

- نيكولاس! انت إنسان ذكي وتعرف هذا الملفّ من أوّله إلى آخره . بإستثناء همّام ، لم يعرف بقرار الغزو سوى اثنين من اقربائه .

- ولكن الاشاعات تصرّ على انك . . .

يقاطعه يوسف :

- فكّر! لو كنت أعرف أن الغزو سيحدث هل كنت سأقف مكتوف اليدين؟ أجبت على اسئلتك كلّها . قل لي ، الآن ، ما تعرفه عن شهرزاد .

يستعرض الكاتب اوراقاً في ملف يضعه على ركبته ، ثم يخرج ورقه منها ويبدأ في القراءة :

- شهرزاد هو الاسم الفني لفاطمة محسن العبابي ، التي ولُدتْ

في اسرة متوسطة في سعدباد . قبل ان تكمل دراستها الثانوية بدأت تلفت الانظار بجمالها الخارق وصوتها الجميل . بعد أن انهت الدراسة الثانوية التحقت بمعهد الفنون الجميلة . اثر تخرجها من المعهد عملت بهيئة الاذاعة والتيلفزيون ، حيث بدأت تسمي نفسها شهرزاد . في فترة وجيزة ، أصبحت مطربة شهيرة ، وخلال بضع سنوات اصبحت اشهر مطربة في النهروان . التقت بزوجها الصحفي ، طاهر على سعد ، خلال عملها في الهيئة وعاشت معه حياة سعيدة ، على ما يبدو ، وانجبت منه طفلة اسمها زهرة . بمجرد ان عرفت الديكتاتور ، أختفى الزوج ، واختفت الطفلة ، واختفت صور شهرزاد وأخبارها ، واختفت هي . صدر أمر رئاسي بمنع اذاعة أي اغنية من اغنياتها القديمة ، وجُمعت الاشرطة من الاسواق وحرِقت . تستطيع ان تقول ان شهرزاد ماتت ، اعني موتاً مدنياً . رغم محاولاتي لم اجد أحداً يعرف شيئاً عن حياتها الحالية ، أو علاقتها الحالية بالديكتاتور .

- ماذا عن الماضي؟! هل احبّت الديكتاتور؟

- كل مصادري تؤكد أنها كانت مغلوبة على أمرها .

كانت خائفة ان تُغضب الديكتاتور فيحدث شيء لابنتها ، طفلة السادسة التي وُضعتْ في دار رعاية تشرف عليها الدولة ، ومُنعتْ هي من زيارتها . لا يوجد أيُّ دليل يشير إلى انها تشعر ازاء الديكتاتور بأي عاطفة حقيقية .

- يشعر يوسف بسرور خفيّ بالغ وهو يسمع من الكاتب

البريطاني ما يؤكد المعلومات التي وصلته من مصادره الخاصة ، كما وصلته من حاسته السادسة ، ومع ذلك يتنهّد ويقول :

- نيكولاس! من يدري؟! القوة تجذب ، والقوة المطلقة تجذب بصفة مطلقة ، إذ حان لي ان اشوّه مقولة اللورد آكتون الشهيرة . القوة تجذب النساء وتجذب الرجال . لا يستطيع حتى أعدى اعداء همّام ان ينكر أن لشخصيته سلطة غريبة تصعب علي أي انثى ، او أي رجل ، مقاومتها .

ينظر إليه الكاتب مذهولاً ، ويقول يوسف :

- لا وقت للشرح . لا بد أن أذهب الآن . لديّ موعد هام .

يقول الكاتب محتّجاً :

- ولكن اسئلتي لم تنته . هناك عدة مواضيع لم اتطرّق اليها .

- حسناً! سوف نلتقي في الاسبوع القادم . لا تنسْ شيئاً من اسئلتك .

***

حبيبتي ناهد ،

لندن كئيبة ، كالعادة . الأمطار التي كنت أحبّها في البداية أصبحت تثير السأم . السحاب الذي كنت أراه حضناً حنوناً يحتضن المدينة وأهلها أصبح كابوساً اسود يلّف الناس والأشياء . وحياتي ، يا حبيبتي ، كما تعرفينها . أصحو في السابعة . أذهب إلى بركة

السباحة . أقضي نصف ساعة في السباحة ، ونصف ساعة على آلة المشي الكهربائية . في الثامنة ، تماماً ، يجيء الافطار : عصير البرتقال والبيضة المسلوقة . وتأتي مع الافطار عشرون صحيفة بريطانية وعربية تحوّل اسعد الناس خلال دقائق معدودة ، إلى اشقى الناس . في التاسعة ، اعني قبلها بقليل او بعدها بقليل حسب تعليمات رجال الأمن ، ابدأ الرحلة القصيرة إلى المكتب ، متبعاً طريقاً مختلفاً كل يوم حسب تعليمات رجال الأمن . احتياطات لا معنى لها ، أجاريها واضحك ، في سرّي ، من فعاليتها المعدومة . بمجرد دخولي المكتب تبدأ المكالمات وتنهمر الأوراق . اتذكّر كل يوم ما قاله صديق عزيز ذات يوم . لو أضربت الأوراق عن العمل لأصيب الموظفون في كل مكان بالشلل . في العاشرة ، تماماً ، يصل صاحب الموعد الأول . وتتوالى المقابلات . بعد انتهاء عمل اليوم ، بين الخامسة والسابعة ، تبدأ الدورة المسائية ، الاستقبالات والزيارات والحفلات . لا أعود إلى دار السكن إلا بعد منتصف الليل . حسناً! والاشياء الأخرى! انت تعرفين الأشياء الأخرى ، يا حبيبتي ، اليس كذلك؟ إذا كانت روحك معي فلا بُدّ ان روحك ترى كل شيء . صدّقي أو لا تصدقي ، اني حاولت ، مراراً وتكراراً ، الإتصال بروحك . ذهبت إلى «جمعية لندن الروحية» التي أُسّستْ قبل قرن كامل والتي كان السير آرثر كونان دويل ، مخترع شرلوك هولمز ، قطباً من اقطابها . زرت اكثر من عشرين وسيطاً روحياً وعدداً اكبر من الوسيطات الروحيات . والنتيجة؟ لا

شيء! يحاول الوسيط ان يستنتج مني ما جئت لأعرفه . فقدت الأمل في الوسطاء والوسيطات . ورغم ذلك ، أعرف انك بقربي ، لا بُدّ ان تكوني بقربي . تعرفين كل شيء ، وتصفحين عن كل شيء . حتّى عن فترة الجنون الكامل التي لقيت شهرزاد اثناءها . لن احاول الشرح . لن أحاول التبرير . لن أحاول الاعتذار . وكيف أشرح وأنا لا أفهم ما حدث؟ وكيف ابرّر ما لا يقبل التبرير؟ وكيف أعتذر عن شيء حدث وأنا مسلوب الإرادة؟ ومع ذلك ، فأنا اريد أن اتحدّث اليك . اتحدّث بكل حرية . أتحدّث عن كل شيء . كما كنّا نفعل . أريد أن أقول لك كل شيء . كما كنا نفعل . كنتُ وحيداً ، يا حبيبتي . كنت ترفضين أن تعيشي في سعدباد . ولم تكوني تزورينني إلا مرّتين أو ثلاث مرات في السنة ، ولم يكن بوسعي ان اعود إلى الكوت لأراك إلاّ بين الحين والحين . كانت سعدباد ، وأظنها لا تزال ، مدينة كئيبة يائسة منطوية على همومها . كانت سعدباد ، واظنها لا تزال ، مشغولة بلعق جراحها . وكان كل يوم جديد يأتي بجرح عميق جديد . وكان الناس مستسلمين لقدرهم ، لقنابلهم ، لنعوشهم ، لميداليات الشهداء ، وللزعيم الذي فرض عليهم ان يكرهوه ويخافوه ويعشقوه . وان يروه كل لحظه من لحظات النهار . في الكتب المدرسية . وفي الصحف . وفي الجداريات . وان يروه كل لحظة من لحظات الليل . في التيليفزيون ، وفي كوابيس اليقظة والمنام . وكان من قدري أن اتعامل مع هذا الرجل . لا! لم يكن صديقي ، كما يزعم الزاعمون . أنا أعرف ، يا

حبيبتي ، انك كنت تكرهينه ، بعمق . وكنت تحتقرينه ، بعمق . وانا أعرف ان علاقتي به سبّبت لك ألماً هائلاً لم تعبري عنه بكلمة واحدة . وأنا أعرف ان هذه العلاقة كانت السبب الحقيقي لرفضك الاقامة في سعدباد . أعرف ان هذه العلاقة كانت الشيء الوحيد الذي عكّر صفو حياتي معك ، وحياتك معي . إلاّ اننا لم نناقش الموضوع ، قط . هل كنا بحاجة إلى مناقشة شيء ، يا حبيبتي؟ كنا نتواصل ، طيلة الوقت ، حتىّ عندما تكونين بعيدة . لم نكن في حاجة إلى الكلام . كنتُ ، يا حبيبتي ، في حالة نفسيه بالغة السوء . لو ذهبتُ إلى طبيب نفسي ، وقتها ، لقال أني اعاني من كآبة عميقة . كانت علاقتي بالرجل تستنزفني . تمتصّ روحي ، قطرة قطرة . تحوّلني ، تدريجياً ، إلى شيء مثله بلا روح . ما رأيك ، يا حبيبتي ، في هذا الاعتراف الغريب؟ هل كنت تعرفين التحوّل الذي كان يمزّقني من الداخل كما كنت تعرفين كل شيء؟ لا يوجد ، يا حبيبتي ، شيء يقتل أجمل ما في الروح مثل الإقتراب من ديكتاتور . الرغبة في ارضائه تقتل جزءاً من الروح . والرغبة في تقليده تقتل جزءاً ثانياً . الرغبة في البقاء في ظله تقتل جزءاً ثالثاً . ماذا يتبقّى من الروح؟! هل تعرفين ، يا حبيبتي ، لماذا يقتل الديكتاتور أقرب المقربيّن منه؟ لا يقتلهم على غير هدى ، كما يتصوّر البعض . يقتل الذين استطاعوا الاحتفاظ بجزء من روحهم لأنهم يذكروّنه بروحه المسلوبة . هذا قانون من قوانين الطبيعة ، يُعبرّ عنه بأساليب مختلفة . الثورة التي تأكل

اولادها . الملك العقيم . الظلم المتأصّل في شيم النفوس . إذا اردتِ ان تفهمي القانون تأمليّ الذين يحيطون بالديكتاتور . هل تجدين بينهم انساناً حقيقياً واحداً؟ الجميع من فصيلة «الزومبي» . هل تذكريه ، يا حبيبتي ، حين ذهبنا ، ذات ليلة ، نبحث عن «ڤودو» حقيقي في جزيرة من جزر الكاريبي؟ تذكرين؟! حقاً؟! تذكرين الديك المخنوق والعنز المذبوحة؟! وجدنا «الڤودو» ولم نجد «الزومبي» . أريد أن أقول ، يا حبيبتي ، اني كنت على وشك التحول إلى «زومبي» . كنت احسّ بالوحش يتقمصني ، خلّية خلّية ، وكنت إحس بروحي تتسرّب مني شيئاً فشيئاً . في هذه الظروف رأيت شهرزاد . . .

زوجك المحب المخلص

يوسف

(من المذكرة الشخصية

ليوسف الفلكي)

***

في شقته «بكينزنجتون» ينظر يوسف ، بإهتمام ، إلى جيفري مايلز ، صاحب الشركة الأمنية التي يستأجر يوسف خدماتها لحراسة وجمع ما يحتاج إليه من معلومات تتعلق بسلامته ، ويقول :

- جيفري! وصلت أخبار جديدة .

- سمعت ، يا صاحب السعادة .

- كيف سمعت؟

يبتسم جيفري ، ولا يرّد ، ويقول يوسف :

- لماذا أنسى دوماً؟ عملت في الفرع الخاص سنين طويلة . لا بد انك سمعت من زملائك السابقين .

يستمر جيفري في صمته ، ويواصل يوسف :

- حسناً! من العيب أن يفضح الانسان مصادره . هذه قاعدة ذهّبية احترمها ، واقدرٌ من يحترمها .

- ما هي تعليماتك ، يا صاحب السعادة؟

- جيفري! علينا ان نتذّكر ان همّام لم يكف عن محاولة اغتيالي منذ تحرير الكوت . انت تعمل معي منذ قدومي إلى لندن ، وتعرف كل شيء . لا أعتقد ان المعلومه الجديدة التي وصلتنا تغيّر شيئاً في الوضع .

- أخشى أن الأجهزة البريطانية ، يا صاحب السعادة ، أخذت المعلومة الجديدة مأخذ الجد .

يبتسم يوسف :

- حسناً! حسناً! هذا شيء مُطمئن . ولكن هل بوسع همّام ان يفعل شيئاً يتجاوز ما فعله حتىّ الآن؟ لم تعد هناك خلية واحدة نشطة من خلايا استخباراته في لندن . لا يوجد أنصار حقيقيون له في الجالية . يوجد متعاطفون ولكن تعاطفهم لا يصل حدّ ارتكاب جريمة قتل من اجله . لم يبق في قسم رعاية المصالح النهروانية عملاء لأجهزته . من الصعب عليه ، وهو في عزلته الحالية ، ان يدخل إلى

لندن فريقاً لإغتيالي . انت تعرف ، كما اعرف ، ان الفريق لكي يحقّق هذه يجب ان يكون مكوناً . . .

يبتسم جيفري ، ويقول :

- من خلية للاستطلاع ، وخلية مقيمة لترتيب الاسلحة والأماكن الآمنة ، وخلية قادمة من الخارج تتولى المهمّة . تسعة اشخاص ، على الأقّل .

- تماماً! من المستحيل ان ينجح همام ، في الظروف الراهنة ، في ادخال فريق كهذا . والاصدقاء في MI6 وMI5 يؤكدون لي أنهم يتابعون الموقف بإهتمام .

- كل هذا صحيح ، يا صاحب السعادة ، ولكن الا ترى من الحكمة ان نضاعف الإجراءات الامنية؟

- جيفري! انت تعرف رأيي في الأمن . الامن الحقيقي يمكن تلخيصه في كلمتين : المعلومات الدقيقة . ما دمنا قادرين على الحصول على هذه المعلومات فلا مُبرّر لأن أعيش في قفص محاطاً بجيش من الحُرّاس . حاول جهدك تتبّع المعلومات من مصادرك ، وسأقوم انا بالشيء نفسه . إذا وجدنا ما يدعو إلى مضاعفة الاجراءات ، فسوف نضاعفها . ولكن حتى ذلك الحين دعني في سلام . أرجوك!

- عفواً ، يا صاحب السعادة! هناك ثغرة واحدة في اجراءاتنا الامنية ، ثغرة . . ثغرة . .

يقاطعه يوسف :

- تعني المواعيد النسائية؟

- نعم ، يا صاحب السعادة .

- لن أغير شيئاً في اسلوب حياتي .

- معذرة ، يا صاحب السعادة! بعض المعلومات التي وصلتني ، ولم استطع التأكد من صحتها بعد ، تقول ان محاولة الاغتيال ، هذه المرة ، لن تتمّ بالطرق التقليدية .

- لم أفهم . .

- أقصد أنه لن يكون هناك فريق اغتيال ، ولا رصاصات ، ولا قنابل .

- هل سيقتلونني عن طريق «الڤودو»؟

- لا ، يا صاحب السعادة . تقول المعلومات التي وصلتني أن محاولة الاغتيال ستقوم بها امرأة .

يصمت يوسف ، ثم يقول :

- آه! الموت عشقاً! الموت جنساً! جيفري! ليست لديّ سوى امنية واحدة .

- نعم؟!

- ان تكون المرأة جميلة . لا شيء أقبح من الموت على فراش امرأة قبيحة!

***

السفير السفيه

لا تزال فضائح السفير السفيه مبعوث الدويلة إياها تزكم الانوف في لندن . خلال اسبوع واحد شوهد هذا الرجل المستهتر مع اربع نساء مختلفات في اماكن مشبوهة . هل ترسل الدول العربية السفراء للدفاع عن قضايا العرب ، أم لإشباع نزواتهم السافلة؟ أننا ندعو حكومة هذا السفيه إلى سحبه فوراً من العاصمة البريطانية ، وإذا لم تقم بذلك فسوف نكون مضطرين إلى نشر فضائحه الكثيرة ، مدعمة بالصور والوثائق على صفحات هذه الجريدة التي نذرت نفسها للدفاع عن كرامة العرب في كل مكان .

(جريدة «الصوت الصادق» اللندنية)

***

حبيبتي ناهد ،

كنت ، إذن ، حزيناً وحيداً كئيباً مُحبطاً عندما حدث ما حدث .

كنت في بيت صفوت وحيد الذي أقام حفلاً صغيراً بمناسبة عيد ميلاد السيد القائد المنصور (الخ . . . الخ . . الخ . .) . وبدأت شهرزاد تغنّي ، وصمت الجميع . لم أر شهرزاد ، قبل تلك الليلة ، إلا في

التيليفزيون . وجدت أن الأصل أجمل من الصورة المتلفزة والصوت المتلفز . عفواً ، يا حبيبتي! وعدت أن أقول لك كل شيء . كل شيء! حتّى التفاصيل التي تقولين انك تعرفينها ، وانك صفحت عنها . جاء صوت شهرزاد حزيناً يحمل شجن النهروان عبر القرون . بدأتُ استمع ، وبدأتْ النهروان ، بتاريخها الرهيب ، تدخل عروقي وتسير في دمائي . حدائق بابل المعلّقة ، وشقاء الذين علّقوها . هاروت وماروت (والسحر الذي يفرق بين المرء وزوجه) . صرخات المكبلّين في سجون الحجّاج . الدماء التي صبغ بها هولاكو الطرقات . اشعار الغزل في الدواوين التي حول حبرها النهر إلى ماء اسود . ارض السواد! ثورات الزنج . تمرّد القرامطة . عيون المها . كان صوتها يحمل هذا كله ، يا حبيبتي . صدقيّني! دون أن أحسّ بدأت الدموع تسيل من عينيّ . بدأتُ ابكي بصمت وشهرزاد تتجول في احراش الآلام النهروانية . تئّن بإسم القروية الحسناء التي تطلب من زميلاتها الابتعاد عن حبيبها الذي نالته بارتجاف الحشا وخفقان القلب . تبكي مع الحبيب الذي يزور الغنم كل صباح ليلمح حبيبته الراعية . تذوب مع العاشقة التي تبكي لبعد حبيبها يوم العيد . يبدو ان شهرزاد لاحظت الرجل الغريب الباكي بين الرفاق السكارى المحتفلين . نسيت الحاضرين ، واتجهت بغنائها ، ونظراتها ، إلى الضيف الباكي . آه ، يا حبيبتي! آه! من يعرف كُنّه الاهواء الخفيّة المعقّدة التي تدفعنا إلى فعل ما نفعله؟ هل ايقظ الرجل الباكي حنان الانثى / الأم؟ هل فوجئت بضعف

بشري بين أنصاف الآلهة؟ هل؟ هل؟ هل؟ هل؟ من يدري؟ كان من الواضح ، يا حبيبتي ، ان شيئاً ما قد حدث . في تلك الاجواء الدامعة الحزينة وُلدِ الجنون الذي قاد ، يا حبيبتي ، إلى موتك . فجأة ، بلا موعد ولا إنذار ، فُتح الباب ، ودخل الزعيم بشحمه ولحمه . تغيّر الجو كما يتغيّر الصحو مع قدوم العواصف الرعدية البرقية . قفز الجميع ، وُهرعوا يهنئون القائد بالمناسبة التاريخية الخالدة ، يوم ان سعد الكوكب الأرضي بإطلالته البهيّة . وتلقى سيادته التهنئة كما يتلّقى آله سومري ضحايا المؤمنين . وهرعت شهرزاد ، بدورها ، تقدّم فروض الطاعة والولاء . ثم انتهت الطقوس ، وتفضل سيادته بالجلوس ، وتكرّم فأجلسني بقربه . عادت شهرزاد إلى الغناء . ولكنه كان غناء مختلفاً تماماً . كانت تغني بصوتها لا بأحشائها . تغني لصانع الفجر ، صانع النصر ، صانع الغد ، صانع الأمل (الخ . . الخ . . الخ . . الخ . .) كانت هذه من المرات النادرة التي رأيت همّام فيها يشرب خمراً . كان أمامه كأس مليء بالويسكي وكان يرشف منه بحساب . فجأة ، دنا مني وهمس : «يوسف! ما رأيك؟» قلت : «رأيي في ماذا ، يا سيادة الرئيس؟» . أشار بالسيجار وقال : «هذي! المغنّية!» قلت : «صوتها جميل جداً ، يا سيادة الرئيس» . ضحك همّام ضحكته الشهيرة التي تهزّ جسده كله - لا تصدقي ، يا حبيبتي ، من يقول ان الديكتاتور لا يضحك - وقال : «صوتها؟! اين عيونك؟! إلا ترى نهديها؟» . حقيقة الأمر أنه لم يقل «نهديها» . استخدم تعبيراً سوقياً لا مُبرّر لتكراره . لم

اعلّق . وبدأ ينظر إليها نظرة غريبة ، وبدأت تبادله النظرات . جمدت عيونها على وجهه . في تلك اللحظة ، خطرت ببالي صورة الأفعى التي تثبت عيونها على عيون الضحية فتشل حركتها ، وتبقى الضحية جامدة في مكانها حتى تصل الأفعى ، وتلتهمها . هل هذه حقيقة علمية ام اسطورة؟ لا أدري ، ولا يّهم . في هذه اللحظة بدأ الجنون يتحرّك في أعماقي . من أعطى هذا المخلوق البشع الحق في ان يختطف مني إنسانة جعلتني ابكي؟ من قال للسيد القائد المنصور (الخ . . . الخ . . الخ . .) ان من حقه أن يستولي على أي إمرأة يعجبه نهداها؟ في لحظة عارمة في جنونها ، اتخذت القرار الذي قاده ، مباشرة ، إلى موتك . لن اسمح لهذا الرجل المشّوه أن يأخذ هذه المرأة مني . . .

زوجك المحب المخلص

يوسف

(من المذكرة الشخصية

ليوسف الفلكي)

***

بمجرّد دخول يوسف إلى المكتب قالت له مارجريت :

- كالعادة ، حجزت الصباح كله لإجتماعك مع الدارسين بالمعهد

الدبلوماسي .

- حسناً فعلت . متى سيحضرون؟

- بعد نصف ساعة .

- حسناً! عندما يجيئون خذيهم إلى قاعة الاجتماعات وأخبريني .

وقف يوسف أمام ليلى وسألها :

- هل هناك اتصالات هامة؟

- الجموع المعتادة . لا يوجد شيء هام أو عاجل .

انتقل إلى السكرتيرة الثالثة :

- وانت يا سميرة؟

- الملف على مكتبك .

- كم عدد الاوراق؟

- اربعين أو خمسين ورقة . أو ربّما ستين!

- شكراً جزيلاً . ماذا فعلت لاستحق كرمك؟

دخل يوسف مكتبه ، وبدأ يدوّن ملاحظات تمهيداً للاجتماع مع الدارسين . جرت عادة المعهد الدبلوماسي بوزارة خارجية الكوت أن يرسل طلبة الدبلوم العالي في رحلة سنوية إلى بريطانيا ، يزورون خلالها وزارة الخارجية وعدداً من المراكز المعنية بالدراسات الدولية . وجرت العادة أن يكون مسك الختام لقاء مع يوسف الذي يحرص

على هذا اللقاء حرص الدارسين أنفسهم عليه . ملأ صفحتين بالملاحظات قبل ان يجيئه صوت مارجريت عبْر التيليفون .

- صاحب السعادة! وصل الدارسون وأخذتهم إلى قاعة الاجتماعات .

- كم عددهم هذه السنة؟

- هناك سبعة طلاّب ، واستاذان .

- حسناً! أخبريهم أني في الطريق اليهم .

دخل يوسف قاعة الاجتماعات ، وصافح الأستاذين ، والدارسين ، وجلس في صدر الطاولة ، وقال :

- أهلاً وسهلاً! مرحباً بكم في سفارتكم في لندن . أرجو ان تكونوا قد استمتعتم بزيارتكم لبريطانيا واتمنّى ان تفيدكم في دراستكم . أريد أن أبدأ ببعض الملاحظات العامة عن طبيعة عمل السفير ، وبعدها سوف اترك المجال للنقاش . أرجو إلا تتحرّجوا من توجيه أي سؤال تودّون توجيهه . أرجو إلاّ يعتب عليّ الدكتور خالد والدكتور جمال إذا قلت ان وظيفة السفير هي الوظيفة الوحيدة التي لا يوجد لها توصيف ، أو «جوب دسكربشن» ، كما يقولون هنا . أعرف ان هناك التقارير الدورية ، وهناك من يراقب اداء السفير في الدولة التي ارسلته ، وفي الدولة التي استقبلته ، وأعرف ما تقوله كتب القانون الدبلوماسي والقنصلي . لا تصدّقوا ما في الكتب! يستطيع

السفير أن يشكّل وظيفته على النحو الذي يريده . على سبيل المثال ، أدخل مكتبي كل صباح واجد عشرات الدعوات ، بلا مبالغة ، عشرات الدعوات . حفلات استقبال . حفلات عشاء . حفلات غداء . مناسبات في مجلس العموم . مناسبات في مجلس اللوردات . دعوات من وزارات وشركات وفنادق . أذهب أو اعتذر؟ لا يوجد من يقررّ سواي . بوسعي ان احضر المناسبات كلها وهذا شبه مستحيل ، ولكنه ممكن احياناً . وبوسعي ان اعتذر عن عدم حضور أيّ منها . وبوسعي ان احضر بعضها دون البعض الآخر . والعجيب ، يا إخوان ، انني لو حضرتها كلّها لما شكرني أحد ، ولو غبت عنها كلّها لما عاتبني أحد . لننتقل إلى مثل آخر . هناك ، طيلة العام ، مواطنون من الكوت يتلقون العلاج في لندن . بوسعي ان ازورهم ، أو أزور بعضهم ، أو لا ازور أحداً . هناك مثل ثالث ، اكثر أهمية . يضم مجلس العموم قرابة ستمئة وستين نائباً ، تسعة وخمسين إذا اردنا الدّقة . بوسعي ان ازور كل نائب منهم ، ولا يثني عليّ أحد ، أو ان اتجاهلهم جميعاً ولا ينتقدني أحد . ويصدق الشيء نفسه على مجلس اللوردات . أعتقد أنكم بدأتم تدركون الصورة . في هذا الخضمّ المتلاطم من الاحتمالات يجب ان يضع السفير لنفسه أولويات صارمة جداً . إذا لم يفعل هذا ، فسوف يجد نفسه أمّا عاجزاً عن أي حركة أو صريعاً من الاعياء . أي سفير بلا أولويات واضحة هو سفير يتخبطّ على غير هدى . وهذا يقودني إلى النقطة الثانية - إلى موضوع كثيراً ما يلتبس في الأذهان .

هناك فرق كبير بين الحركة الحقيقية وبين وهم الحركة . يستطيع الواحد منا أن يجري واقفاً مكانه ، كما كنا نفعل في المدرسة اثناء حصص التربية البدنية . المجهود الذي يبذله الانسان حقيقي ، والتعب الذي يرافق المجهود حقيقي ، ولكن هل هناك حركة حقيقية؟ هناك من يعجز عن التفرقة بين الحركة ووهم الحركة ، وسوف افصّل ما اعنيه . السفير الذي يزور عشر حفلات استقبال يومياً يبدو أمام الكاميرات والصحف والقرّاء نشطاً جداً ، ولكن هل حقق شيئاً سوى زيادة وزنه؟ السفير الذي يدعو كل زائر إلى غداء أو عشاء سرعان ما ينافس حاتم الطائي في سمعة الكرم ، ولكن هل لهذه السمعة أي معنى سياسي فعلي؟ السفير الذي يزور عشرين لورد كل اسبوع يستطيع أن يكتب تقريراً حافلاً ، ولكن ما جدوى اضاعة الوقت مع أشخاص بلا أهمّية؟ رُبع ساعة ، مع شخص مهم ، شخص مهم فعلاً ، تعادل عشرين يوماً مع اشخاص لا أهمية لهم . لا اتكلم من الناحية الانسانية ، كل البشر متساوون ، ولكنني أقصر حديثي على الفعالية السياسية . النقطة القادمة هي محور نظريتي في طبيعة عمل السفير ، إذا جاز ان أسمّيها نظرية . لكي يكون السفير فعالاً يجب ان يعرف مكامن القوة الحقيقية ويركزّ عليها . يختلف الوضع ، بطبيعة الحال ، من نظام إلى نظام . أحياناً ، لا يكون الشخص المهّم في موقع رسمي . هناك فرق بين السلطة ، التي ترتبط دوماً بالمنصب ، والنفوذ وهو التأثير الذي لا علاقة له بمنصب . في أحيان كثيرة ، اكثر مما تتصورون ، يكون النفوذ أهم من

السلطة . صديق رئيس الوزراء الشخصي أكثر نفوذاً من معظم الوزراء ، وبالتالي يصبح التعرّف عليه أهّم من التعرف على معظم الوزراء . في كل دولة ، كل دولة بلا استثناء ، هناك مجموعة من البشر تمسك بيدها مقاليد الأمور . بعض هؤلاء الناس معروفون ومشهورون يراهم الجمهور في وسائل الاعلام يومياً ، وبعضهم لا يظهر إلا نادراً ، وبعضهم لا يظهر في الاعلام أبداً . بعض هؤلاء يتمتعون بالسلطة والنفوذ معاً ، وبعضهم يتمتعون بالنفوذ دون السلطة . بطبيعة الحال ، من الصعب تحديد عدد هؤلاء المهّمين ، اهل الحل والعقد إذا اردنا استعمال تعبير من التراث ، بأي قدر من الدقة . هناك دائرة اولى ، المهمين جداً ، ودائرة ثانية ، الاقل أهمية ، وهكذا . إلاّ أنه يندر ، في أي دولة من الدول ، أن يتجاوز عدد الذين يسيّرون الامور عن الف شخص . ينطبق هذا على الكوت الصغيرة كما ينطبق على الولايات المتحدة ، الدولة الأعظم ، كما ينطبق على بريطانيا ، الدولة شبه العظمى . السفير الفعال هو الذي يعرف اين توجد مفاتيح القوة ، يصل إلى الممسكين بهذه المفاتيح ، ويؤثر عليهم لخدمة أولوياته . كل مجهود آخر يقوم به السفير هو وهم حركة وليس حركة حقيقية ، أو إذا اردنا تجنبّ القسوة ، هو تمرين في العلاقات العامة قد لا يضرّ ولكنه لا ينفع . بالنسبة لي ، منذ قدومي إلى لندن كانت في ذهني اولوية واحدة واضحة ، هي حماية الكوت من نظام همّام بوسنيّن . كل أعمالي هنا تبدأ وتنتهي بهذه الأولوية . بعد هذه المقدمة ، التي طالت

أكثر مما كنت انوي ، يسّرني ان اتلقى منكم أي ملاحظة أو سؤال .

يقول الدكتور خالد السنافي ، أحد الاستاذين المرافقيْن للدراسين :

- شكراً ، سعادة السفير . نيابة عن الدكتور جمال والزملاء الدارسين ، يسّرني ان اشكركم على كل الترتيبات ، وعلى الوقت الثمين الذي تقضونه معنا . أودّ ان أبدأ بسؤال عن أصحاب المفاتيح الحقيقية للقوة . كيف يستطيع الدبلوماسي معرفتهم؟

يفكرّ يوسف قليلاً ، ثم يجيب :

- للأسف ، لا توجد طريقه سهله . وللاسف ، لن تجد كتاباً يشرح لك الطريقة . بعض هؤلاء المهمّين يعرفهم الجميع . لا شك في ذهن أحد أن أقوى رجل في بريطانيا اليوم هو رئيس الوزراء ثم وزير الخزانة ، وهلم جرا . احياناً ، تنشر الصحف والمجلات قوائمة باسماء الاشخاص المهمين ، أهم مئة شخص أو أهم مئتي شخص . هذه القوائم تعكس رأي المطبوعة ولا تعكس ، بالضرورة ، الواقع . المشكلة الحقيقية هي معرفة الاشخاص الذين لا يتردد اسمهم في وسائل الإعلام ، وليست لديهم مناصب سياسية . هنا لا بدّ ان يستعمل السفير كل وسيلة متاحة لمعرفة هؤلاء الأشخاص . بمجرد قدومي إلى بريطانيا طلبت من ثلاث شركات متخصّصة في العلاقات العامة السياسية ، في «اللوبي» بعبارة أخرى ، ان تعدّ لي قائمة بأهم الف شخص في بريطانيا . بعض هذه الأسماء تكرّر في القوائم الثلاث ،

وبعضها لم يتكرر . احياناً ، يوجد نفوذ هائل في مكان لا يتوّقعه أحد . سكرتيرة رئيس الوزراء ، هارولد ويلسن ، كانت ، في سنوات حكمه الاخيرة ، اهم من عدد من الوزراء . أيام الملك فاروق كان الخادم الخاص الذي يعنى بملابسه يعيّن الوزراء ويعفيهم . أيام الرئيس جمال عبدالناصر كان صحفي ، تعرفونه جميعاً ، أهم من غالبية الوزراء . هناك من يقول أنه كان الرجل الثاني في النظام ولكن هذه مبالغة بعيدة عن الواقع . عندما كنت سفيراً في النهروان اكتشفت حلاقاً لديه نفوذ اكبر من نفوذ بعض الوزراء . لعلكم عرفتم زبون هذا الحلاّق .

يضحك الدارسون ، ويقول الدكتور جمال العبيدي ، الاستاذ الثاني المرافق :

- سعادة السفير! وماذا يحدث عندما ينجح السفير في معرفة أصحاب المفاتيح كما سميتهم؟ ما هي الخطوة التالية؟

- هنا تبدأ الصعوبة . على السفير ان يركزّ على الأشخاص الذين لهم علاقة ، مباشرة أو غير مباشرة ، بأولوياته . قد يكون هناك رجل مهم جداً في الكنيسة ، ولكن معرفته ، بالنسبة لي ، لا تقدّم ولا تؤخّر . أنا لا اريد معونه من بريطانيا ، ولهذا فالتعرّف على المسؤولين المعنيين بالعون الخارجي لا يهمني كثيراً ، وهلم جرّا . بعد تحديد الاشخاص المهمين ، بهذا المعنى ، على السفير ان يحاول التعرف عليهم . هذه مهمة أبعد ما تكون عن السهولة . في لندن قرابة مئة

وثمانين سفيراً يطاردون أصحاب النفوذ . الأشخاص المهمون مشغولون جداً ، ويندر ان يوجد بينهم من يتسع وقته لمقابلة سفراء . بالصبر والدأب يستطيع السفير الفعال ان يتعرّف على عدد لا بأس به من أصحاب المفاتيح . إلا ان السفير يجب ان يكون في تصرفاته لبقاً بعيداً عن الفضول والتطفل ، أي ان يكون «ذرب» كما نقول بلهجتنا الدارجة . لا شيء اثقل من سفير ثقيل .

يضحك الدارسون مرة أخرى ، ويقول أحدهم :

- ولكن ، سعادة السفير ، عندما يتعرّف السفير على أصحاب النفوذ الحقيقي ، كيف يتم التأثير عليهم؟ ما هي الوسائل؟

يفكر يوسف قليلاً قبل ان يرّد :

- هذا هو الجزء الأصعب . هناك مقولة شائعة في الغرب ، وربّما في الشرق ايضاً ، تقول : «لكل إنسان ثمن» . المقصود أنه يمكن شراء أي إنسان إذا دفعت الثمن المطلوب . هذه المقولة خاطئة ، رغم وجود استثناءات كثيرة . البشر ليسوا بضائع معروضة في السوق تنتظر أن يشتريها أعلى المزايدين . المقولة الدقيقة هي التي تقول : «لكل إنسان نقطة ضعف» . إذا عرفت نقطة الضعف في إنسان ما قد تنجح في الوصول إليه . سأعطيكم بعض الأمثلة . وزير الخارجية البريطاني رجل عبوس متكبر يعتقد ان السفراء من فصيلة لا تصل إلى مستوى البشر (باستثناء السفير الأمريكي ، بطبيعة الحال!) . اكتشفت ان نقطة ضعفه هي سباق الخيل . يقضي معاليه الكثير من الوقت ، حتى

خلال ساعات العمل ، في مشاهدة سباق الخيل على التيليفزيون ، كما انه يكتب عموداً اسبوعياً في صحيفة محلية يتنبأ فيه بالخيول التي ستفوز . بمجرد ان عرفت هواية الوزير طلبت من مكتب مراهنة ان يضع لي رهاناً بمبلغ صغير على كل حصان يتنبّأ له الوزير بالفوز . كنت كلما فاز واحد من خيول الوزير ارسل له رسالة صغيرة ، اشكره على توقّعه ، وأخبره اني تبرعت بجزء من الربح لجميعة خيرية في منطقته الانتخابية . لعلكم أدركتم ما حدث : رقاني الوزير إلى الفصيلة البشرية! . هناك مثل آخر . رئيس الوزراء السابق كان مغرماً بلعبة الكريكيت إلى حد الجنون . أنا لا أعرف الفرق بين الكريكيت والشطرنج . بمجرد أن عرفت هواية رئيس الوزراء عينت من يمكن ان اسميه «مستشاراً في شؤون الكريكيت» وكنت استقي منه آخر المعلومات والتطورات الكريكيتية قبل أي موعد مع رئيس الوزراء . لا اشكّ ان هذا اوجد انطباعاً ايجابياً عن شخصي الضعيف لدى دولة الرئيس . وهناك حيلة – إذا جاز لي ان استخدم الكلمة – ثالثة . إذا كان الشخص المهّم قد ألفّ كتاباً ، أو أكثر ، فأسرع الطرق إلى عقله وقلبه قراءة الكتب التي الّفها بتمعّن ثم مناقشتها معه . تعلمت هذه الحيلة أيام الدراسة الجامعية في لندن . كنت أقرأ كل ما كتبه أي استاذ من اساتذتي حتى ولو لم يكن لما كتبه علاقة بالمنهج ثم اذهب إليه استوضح وأناقش ، واحياناً انتقد . جربّوا هذه الطريقة مع اساتذتكم ، ولكن اياكم ان تنتقدوا!

يضحك الجميع ، ويواصل يوسف الحديث :

- بإختصار ، لا توجد طريقة واحدة مضمونة . لا بُدّ من اخذ كل حالة على حدة . لا توجد حالتان متماثلتان . بعد ذلك يبقى موضوع الألفة النفسية . احياناً ، يكتشف السفير ان هناك حواجز نفسيه حصينة تحول بينه وبين الاقتراب من شخص ما ، «اختلاف الكيمياء» كما يقولون هنا . في هذه الحالة ، لا يوجد خيار سوى تقليل الخسائر والإنسحاب بإنتظام .

يسألة احد الدراسين :

- سعادة السفير! اوّد أن اسأل عن الملكة . هل صحيح أنها تملك ولا تحكم؟ هل صحيح أنه لا توجد لديها أي سلطة؟

- هذا الكلام صحيح ، وغير صحيح . صحيح ان الملكة لا تمارس أي سلطة سياسية مباشرة ولكن من الخطأ ان يعتقد أحد أنها بلا نفوذ . تطلّع الملكة على كل الاوراق الرسمية ، وتعّلق عليها إذا شاءت . لا يصبح أي قانون نافذاً إلا بموافقة الملكة ، رغم ان الموافقة تجيء بصفة تلقائية . كل تعيينات السفراء ، سواء السفراء الذين تبعثهم بريطانيا أو الذين تستقبلهم ، تعرض على الملكة للحصول على موافقتها التي تجئ بصورة تلقائية . هذه الورقة ، خلفي على الجدار ، هي براءة قنصلية تسمح لي بمزاولة الأعمال القنصلية في بريطانيا . لو لاحظتم أعلى الورقة لوجدتم توقيع الملكة في الجانب الأيمن . إلاّ ان النفوذ الحقيقي للملكة لا يظهر أمام الناس . تمارس الملكة نفوذها

الفعلي اثناء اجتماعها الاسبوعي برئيس الوزراء . في هذا الاجتماع ، الذي يعقد بإنتظام ينافس ساعة «بج بن» ، يحيط رئيس الوزراء الملكة بكل ما يدور من اشياء هامة ، وتبدي الملكة ما تشاء من آراء ونصائح . جرى العرف الا تتحدث الملكة ولا يتحدث رئيس الوزراء عن أي شيء يبحث خلال الاجتماع ، ومع ذلك تتسرب بعض الأسرار . قد تعترض الملكة على سياسة معينة للحكومة . صحيح ان رئيس الوزراء غير ملزم بإتباع رأي الملكة . ولكن يجب ألاّ ننسى اننا ازاء ملكة قضت نصف قرن على العرش ، ورئيس الوزراء الحالي هو الرئيس العاشر في عهدها . تكونت لدى الملكة تجربة طويلة ، وحكمة ناتجه عن التجربة ، ولا يستطيع أي رئيس وزراء تجاهل خبرة الملكة وحكمتها .

- سعادة السفير! عملتم فترة في الولايات المتحدة ، وتعملون هنا الآن . ما هو الفارق الأساسي بين النظامين؟

- الفوارق الدستورية بين النظام الرئاسي المطبق في الولايات المتحدة والنظام البرلماني المتبع هنا معروفه ، وأعتقد أنكم ، جميعاً ، ملمون بها . اودّ ان اتحدّث عن الجذور التاريخية لكل من النظامين ، ذلك أنه لا يمكن فهم القانون بدون فهم التاريخ الذي انتجه . احياناً ، يغيّر القانون التاريخ ، ولكن هذه قضية أخرى . في الولايات المتحدة ، كان الشعب يتكون من المهاجرين الذين فروا من طغيان الملكيات المطلقة في اوروبا ، وأرادوا اقامة نظام سياسي جديد يمنع تحول الحاكم

إلى طاغية . حاول واضعو الدستور الأمريكي ، أو آباؤه كما يُسّمون هناك ، تحقيق هذا الهدف عن طريق الفصل بين السلطات ، وايجاد توازن بينها ، بحيث لا تستأثر سلطة واحدة بالكلمة النهائية . نتيجة ذلك أصبح من الضروري ان يصّدق مجلس الشيوخ على تعيين الوزراء وقضاة المحكمة العليا والسفراء وعلى المعاهدات ، إلى بقية القيود التي يعرفها الجميع ، والتي تستهدف تقييد سلطة الرئيس . في بريطانيا حصل تطور تدريجي ، سلمي مع استثناءات بسيطة ، بموجبه انتقلت صلاحيات الملك إلى مجلس العموم ثم ، من الناحية الفعلية ، إلى مجلس الوزراء ، ثم تركزت ، إلى حد كبير ، في يد رئيس الوزراء . بخلاف الرأي الشائع ، يتمتع رئيس الوزراء في بريطانيا بصلاحيات تفوق صلاحيات الرئيس الأمريكي . يستطيع رئيس الوزراء هنا الغاء وزارة أو وزارات قائمة ، وانشاء وزارة أو وزارات جديدة ، بجرة قلم ، بينما لا يستطيع الرئيس الأمريكي انشاء وزارة جديدة إلا بموافقة الكونجرس . يستطيع رئيس الوزراء البريطاني اعلان الحرب دون اللجوء إلى مجلس العموم ، ويُسمّى هذا الحق «الاختصاص الملكي» إشارة إلى جذوره التاريخية ، بينما لا يصدر أعلان الحرب في الولايات المتحدة إلا من الكونجرس . فصل السلطات في بريطانيا هو اسطورة دستورية . رئيس الجهاز القضائي هنا هو وزير يخضع لتعليمات رئيس الوزراء وان كان يتقاضى راتباً أعلى من راتب رئيسه ، ويسبقه في البروتوكول . إلا انه يجب ان تتذكروا ان رئيس الوزراء يستطيع ان

يمارس هذه الصلاحيات الواسعة ، ما دام حزبه يتمتع بأغلبية في البرلمان ، وما دام هو يحظى بثقة حزبه ، وبالذات أعضاء الحزب في مجلس العموم . عندما نسيت مارجريت ثاتشر هذه الحقيقة وبدأت تتصرف كما لو كانت الملكة اليزابيث الأولى ، تعزل وتعين كما تشاء ، وتصّر على رأيها بمبرر وبلا مبّرر ، فقدت ولاء الحزب ، وفقدت السلطة ، ولا تزال ، حتى هذه اللحظة ناقمة على الذين «طعنوها من الظهر» . أعود إلى سؤالك . مهمة الدبلوماسي في بريطانيا أسهل بكثير من مهمة الدبلوماسي في الولايات المتحدة . عندما تكون علاقتك وثيقة بالحكومة هنا لا يوجد أي مُبّرر لأن تهدر جهدك ووقتك على أعضاء مجلس العموم .

يتدّخل الدكتور جمال العبيدي :

- المعذرة ، يا سعادة السفير! هذه أوّل مرة اسمع فيها ان بوسع السفير الذي يمثّل بلاده في بريطانيا ان يتجاهل مجلس العموم .

- حسناً! حسناً! لا أقصد التجاهل التّام . ولكن لنأخذ بعض الحقائق . سبق ان قلت لكم ان المجلس يتكون من ستمئة وتسعه وخمسين عضواً . الغالبية الساحقة من هؤلاء لا تتجاوز اهتماماتهم شؤون ناخبيهم المحلية : الضرائب والخدمات الصحية والرسوم البلدية والمدارس والمرور . لا يوجد اكثر من مئة نائب لديهم اهتمام حقيقي بالشؤون الخارجية ، وما اعنيه بالاهتمام الحقيقي يتجاوز توجيه اسئلة أو التوقيع على عرائض . نصف هؤلاء ، أو أكثر قليلاً أو أقل قليلاً ،

يتمتعون بالنفوذ الحقيقي . هناك الوزراء السابقون ، والوزراء في حكومة الظل ، ورؤساء اللجان البرلمانية . على هؤلاء ، وعليهم وحدهم ، يجب ان يركز السفير جهده . بطبيعة الحال ، هناك قدر من المجاملات الاجتماعية ولكن يجب إلا نتصوّر ان لها مفعولاً سياسياً يذكر .

يسأل الدكتور خالد السنافي :

- تحدثت عن وزراء الظّل . إلا توجد اي قيود على الاتصالات بين السفير وبين المعارضة؟

- هذه الاتصالات يحكمها عرف غير مكتوب ، مثل معظم الأشياء في بريطانيا . من حيث المبدأ ، لا يوجد ما يحول دون إتصال السفير بأقطاب المعارضة وبحث كل ما يريد بحثه معهم ، إلا ان العرف يتطّلب إلا ينتقد الحكومة القائمة أو سياساتها أمام المعارضة ، وألاّ يفشي اموراً سرية يبحثها مع الحكومة . والمهم ان نتذكر ان العلاقة بين الحكومة والمعارضة ليست عدائية إلى الدرجة التي تعكسها وسائل الأعلام ، أو التي تبدو خلال الاستجوابات في مجلس العموم . رجال الحكومة ورجال المعارضة ينتمون إلى الطبقة الحاكمة نفسها ، وهذه الطبقة كانت محصورة على خريجي اكسفورد وكامبردج في الماضي . توسعت الطبقة ، الآن ، ودخل فيها خريجو جامعات أخرى ، شعبية ان صحّ التعبير ، ولكنها لا تزال طبقة متميّزة عن غيرها . يجب إلا ننسى ان رئيس الحكومة ، أي رئيس حكومة ، وزعيم المعارضة ، أي زعيم معارضة ، كانا ، ولا يزالان ، زميلين في

مجلس العموم ، وربما كانا صديقين . أقرب معاوني رئيس الوزراء الحالي هو شقيق رجل كان أقرب مساعدي مارجريت تاتشر . رئيس الوزراء العمالي الحالي ، اعرب في عدة مناسبات ، عن اعجابه بالسيدة الحديدية . تختلف المعارضة البريطانية عن المعارضة في العالم الثالث ومن هنا يجيء اسمها الطريف «معارضة صاحبة الجلالة الموالية لجلالتها»!

– وماذا عن الصحافة ، سعادة السفير؟ هل يمكن للسفير ان يؤّثر عليها؟

– لا يستطيع أي سفير يعمل في لندن ان يتجاهل الصحافة ، ولكن عليه ان يتذكر ان رضا الصحافة مطلب مستحيل . حتى رئيس الوزراء ، بكل السلطات والامكانيات المتاحة له ، لا يستطيع ان يؤّثر في الصحافة طيلة الوقت . على السفير ان يستفيد من الصحافة باعتبارها المنجم الأعظم للمعلومات السياسية ، بمختلف انواعها . ومن واجب السفير ان يسعى لاقامة علاقات ودّية مع محرري الشؤون الخارجية في الصحف الرئيسية ، وبالذات مع المحررين المهتمين بمنطقة الشرق الأوسط . التعرف على صحفي واحد من هذا النوع أهم بكثير من التعرّف على رئيس التحرير ، أو مالك الصحيفة .

يقف الدكتور جمال العبيد ، ويقول :

– سعادة السفير! مجلسك لا يُمَل والدارسون يتمنون لو قضوا بقية اليوم معك ، ولكننا أخذنا من وقتك ما يكفي ، وآن ان نتركك تعود

إلى عملك ، اعنى إلى مفاتيحك .

يضحك يوسف وهو يودّع المجموعة .

***

يتأمل يوسف الريف الانجليزي الأخضر ، وسيارته تشق الطريق إلى بيت صديقه ماجد الربيعي ، سفير دولة الرمال العربية . الحفلة السنوية التي يقيمها صديقه في منزله الريفي في «ساسكس» هي المناسبة الاجتماعية الوحيدة التي يتطلّع يوسف ، بشغف ، إلى حضورها . تقام الحفلة في المنزل الضخم ، وتمتد من الخامسة مساءً إلى ساعات الصباح الأولى . حقيقة الأمر ، ان الحفلة تتكون من ثلاث مناسبات ، منفصلة ومتصلة . يبدأ الجزء الأول ، حفل الاستقبال ، في الخامسة وينتهي في الثامنة ، ويدعى اليه المئات . اما الجزء الثاني ، حفل العشاء ، فيحضره عدد أقل من الضيوف ، ويمتد إلى العاشرة . بعد ان ينصرف ضيوف العشاء ، تبقى «صفوة الصفوة» ، اصدقاء ماجد المقربّون ، ويبدأ الحفل الغنائي الذي يمتد إلى الصباح .

عند مدخل البيت ، وقف ماجد يستقبل الضيوف الذين انتظموا في طابور طويل . عندما جاء دور يوسف حيّاه صديقه بحرارة ، وهمس :

– يوسف! هناك مفاجأة سارة ، مفاجأة اعددتها خصيصاً لك .

ابتسم يوسف ، وقال لصديقه الأعزب :

- أرجو ان تكون مفاجأة نسائية .

ضحك صديقه وقال :

- سوف ترى ، سوف ترى بعينيك .

انضم يوسف إلى مجموعة من الصحفيين العرب كانوا في ركن من اركان الحديقة الواسعة . بمجرد انضمامه ، زاد ضجيج المجموعة ، وزاد عدد الضيوف المتسللين اليها . اصطحب يوسف المجموعة إلى قاعة واسعة من قاعات المنزل ، وهناك بدأ نقاش صاخب لا تقطعه سوى الضحكات المجلجلة . كان يوسف يستجوب الصحفيين ، ثم يرّد على اسئلتهم ، ثم يستجوبهم في حلقه لا تنتهي . يعرف يوسف انه السفير العربي الوحيد الذي لا يهمه ان ينقل الصحفيون تعليقاته اللاذعة ، ويعرف الصحفيون هذه الحقيقة . لم تنته الضجة إلا عندما جاء الضيف يدعوهم إلى بوفيه العشاء . هرب يوسف من المجموعة ، واختار من البوفيه تشكيلة من المقبلات ، وذهب إلى طاولة هادئة في آخر القاعة . وجد يوسف على الطاولة خليطاً عجيباً : اساتذة جامعيين ، ولوردات ، ورجال أعمال ، ونساء مجهولات الهوية . بدأ يوسف يمازح جيرانه وجاراته ، وسرعان ما بدأ الضجيج يعلو والضحكات تتصاعد .

جاء ماجد إلى الطاولة متظاهراً بالغضب :

- يوسف! أزعجت بقية الطاولات . اهدأ قليلاً .

ردّ يوسف على الفور :

- عمّي ماجد! الهدوء للقبور والضجة للحفلات ، ولولا ضجيجي لتحولت حفلتك العظيمة هذه إلى مأتم .

ابتسم ماجد ، وانتقل إلى طاولة أخرى .

مع نهاية العشاء ، بدأ الضيوف يغادرون حتى لم تبق سوى «صفوة الصفوة» ، قرابة اربعين ضيفاً وضيفة . بدأ الحفل الغنائي العربي ، وتوالت الوصلات يواكبها تصفيق الرجال ورقص النساء . مع تقدم الليل ، أخذت «صفوة الصفوة» بدورها تتناقص حتى وجد يوسف نفسه ، بمفرده ، مع مضيفه الذي قال :

- حان وقت المفاجأة!

غاب ماجد دقائق وعاد ومعه فتاة سمراء جذّابة لا يبدو أنها تجاوزت العشرين ، وقدمّها ليوسف :

- سهاد حلمي ، المطربة النهروانية الصاعدة . سهاد تعمل في بيروت وجاءت إلى لندن في زيارة قصيرة ، وأسعدتنا بحضورها الليلة .

خفق قلب يوسف . مطربة من النهروان؟! صافح السمراء الجميلة التي جلست قليلاً معهما ، ثم ذهبت إلى المنصة الصغيرة حيث ينتصب المايكروفون ، ووراءه عازف العود وحامل الطبلة الصغيرة . وقفت سهاد خلف المايكروفون وقالت لماجد :

- سعادة السفير! ماذا تريد ان تسمع؟

ردّ ماجد :

- لا تسأليني أنا . اسألي ضيف الشرف .

نظرت سهاد إلى يوسف ، وقالت :

- استاذ! ماذا تأمر؟ هل تحب اغاني أم كلثوم؟

اجاب يوسف :

- أحب أغاني أم كلثوم ، ولكنني اعشق أغاني ناظم الغزالي . هل تعرفين شيئاً منها؟

- اعرف عدداً منها ، استاذ!

- اذن اختاري اغنية لناظم .

همست سهاد لعازف العود الذي بدأ يدوزن اوتاره . اقترب يوسف من صديقه ، وقال :

- ماجد! مفاجأة سارة! مفاجأة رائعة! هل تعرف ان شهرزاد كانت تغني كل أغاني ناظم الغزالي؟ كلهّا!

ضحك ماجد ، وقال :

- ومن أين لي أن أعرف معلومة خطيرة كهذه؟

- الم اقصص عليك حكايتي مع شهرزاد؟

- قلت لي بعض الاشياء ، ولم تقل كل شيء .

في هذه الاثناء بدأت سهاد تغني :

قل لي ، يا حلو ، منين الله جابكْ؟

خزنّ جرح قلبي من عذابكْ

جرح القلب من فراقك خزّنْ
من مثلي بمجبوبه تمحّنّ؟
هم هذا نصيبي ، والجبر بِيهْ
لا أني اتوب ولا الله يهديهْ[1]

التفت يوسف إلى صديقه ، وهمس :

- شيء لا يُصّدق! مصادفة غريبة! غريبة جداً! هل تعرف ان هذه هي الاغنية التي غنتها شهرزاد ، في اول لقاء ، قبل ان يشرف سيادة الزعيم؟ وهل تعرف اني ادركت من طريقة غنائها ، ومن نظراتها ، ان الشعور المفاجئ الجنوني الذي بدأت اشعر به نحوها كان متبادلاً؟

قبل ان يتمكن ماجد من الاجابة ، بدأت سهاد أغنية جديدة :

فَوقَ النخل . . فُوقْ
فوق النخل . . فُوقْ
مَدرْي لمع خدّه
مدرْي لمع طوقْ
والله سابيني
بعيونه الحلوهْ
خدك لمع يا هوايْ

---

(١) هذه الاغنية ، وبقية الأغاني في الرواية ، للفنان الراحل العظيم ناظم الغزالي .

وأضوا على بغدادْ
ما أقدر أجر الروح
واتحمل بعادْ
باليني بلوهْ!

بدأت الدموع تتساقط ، بصمت ، من عينيّ يوسف . لاحظ صديقه ، وسأله بقلق :

- أبو يعقوب! ماذا حدث؟ هل تريد شيئاً .

- اريد زجاجة جديدة من النبيذ .

ماجد ، الذي زامل يوسف ثلاث سنوات عندما كانا ملحقين شابين في واشنطن ، ويزامله في لندن منذ سنوات ، يقول مستغرباً :

- حاضر! ولكن الا تعتقد انك شربت ما فيه الكفاية؟ منذ ان عرفتك لم ارك تشرب اكثر من كأسين أو ثلاثة من النبيذ ، ولم ارك قط . .

يقاطعه يوسف :

- عمّي ماجد! تصرف الآف الجنيهات على حفلتك هذه وتبخل عليّ بزجاجة؟

قام ماجد ، وعاد بزجاجة نبيذ أبيض وضعها أمام يوسف ، الذي ملأ قدحه ، وقال :

- في صحتك ، عمّي ماجد!

ثم التفت إلى سهاد :

- في صحتك آنسة سهاد! صوتك أجمل من جميل .
أرجو ان تتحفينا بالمزيد من اغاني ناظم .
ابتسمت المغنية وقالت :
- امرك ، استاذ!
عاد يوسف إلى مضيفه :
- كان تدبير اللقاء صعباً جداً ، يسبقه تخطيط كالذي يسبق معركة حرّبية . في المرة الأولى ، طلبت من زميل في السفارة ان يرتّب سهرة يدعو إليها شهرزاد ، والتقينا في بيته . في اللقاء الثاني ، استعنت بسفير عربي صديق لإقامة حفل غنائي ، وتم اللقاء في منزله . في المرة الثالثة ، لجأت إلى زميل آخر في السفارة لترتيب حفل تحييه شهرزاد بمناسبة عيد ميلاد ابنته الوهمي .
يهز ماجد رأسه مستغرباً ، ويقول :
- ابو يعقوب! كنت انتحارياً . الم تكن تعلم ان الزعيم اختارها لنفسه؟
- لاحظت انها اعجبت سيادته بمجرد ان رآها ، وقد رآها لاول مرة في الحفلة ذاتها التي جمعتني بها . غير أنني لم أعرف إلاّ في اللقاء الثالث أنها تحولت ، بقرار جمهوري لا يُرّد ولا يناقش ، تحوّلت إلى . . إلى . . إلى . .
صمت يوسف ، وسالت الدموع من جديد ، وقال ماجد :
- أعرف المقصود! أعرف المقصود!

- قالت لي ان سيادته أمر زوجها بتطليقها ، ونفاه ، واخذ ابنتها الصغيرة . اتفقنا على اتباع المزيد من الحذر قبل أي لقاء جديد . إلاّ ان القدر كانت لديه خطط أخرى . بعد هذا اللقاء بيومين كلمتني بالتيليفون وطلبت ان القاها ، على الفور ، أمام فندق «الرشيد» . طرت طيراناً ووجدتها تنتظرني قرب المدخل . ركبت بقربي في السيارة وأخذنا نجوب الشوارع بلا هدى .

بدأت سهاد تغُني ، إلاّ ان أفكار يوسف كانت بعيدة جداً عن المنزل الريفي في «ساسكس» .

***

تلتفت إليه شهر زاد وتقول بصوت يخنقه البكاء :

- حبيبي! سوف يكون هذا لقاءنا الأخير . طلبت أن اراك لأودعك .

يهتز المقود في يد يوسف ، وتنحرف السيارة ، ويردد مستغرباً :

- لقاؤنا الأخير؟! لماذا؟! لماذا؟!

- لقد عرف يا يوسف . عرف أننا نلتقي .

- كيف عرف؟! لم نلتق سوى ثلاث مرات . في كل مرة كان هناك حفل وحشد من الناس . لم نغب عن الانظار سوى دقائق معدودة .

يعلو بكاؤها ، وتقول :

- هذا الرجل يعرف كل شيء! كل شيء! كل شيء!

- لا يعرف كل شيء إلاّ الله . هل قال لك عني شيئاً؟

- لم يذكرك على الاطلاق .

- اذن كيف عرفتِ . . .

تقاطعه :

- بغريزة الأنثى ، يا حبيبي ، وهي لا تخطئ . يجب الا نلتقي بعد اليوم ، حياتك في خطر . صدقنّي! صدقنّي!

- حياتي لا تهم . ماذا عن حياتك انت؟!

- حياتي أنا؟! حياتي انتهت! ذهبت ابنتي ، وذهب زوجي ، وأنا اعيش مع الموت نفسه . ما يهّم ، الآن ، هو حياتك انت ، حبيبي .

يوقف يوسف السيارة في شارع جانبي صغير ، ويحتضنها ويقبلّها ، وتمتزج الدموع .

***

عندما عادت أفكار يوسف من رحلتها البعيدة إلى البيت الريفي الانجليزي كانت سهاد تغني :

يا ابن الحمولة . . عليّ اشِبَدلكْ

حسنك مرقيك لو عادة إلكْ؟
ما شفت مثلك بالعالم أبَدَ
عالمودة تمشي مهلاً يا وَلَدْ
حسنك مصيبه سبيت أهل البلدْ

ملأ يوسف القدح بالنبيذ وعبّه كله ، وقال لماجد :

- عندما قالت لي شهر زاد ان الطاغية لم يقل شيئاً عني ، كان لديّ بصيص من الأمل أنها كانت تتوهم . بقرب رجل مخيف كهذا لا بُدّ ان تولد افكار مخيفة . إلا انني سرعان ما اكتشفت أنها كانت أبعد ما تكون عن الوهم .

***

يثبّت همّام عينيه في عيني يوسف ، ويقول :

- يوسف! عزيزي يوسف! هل تعرف المثل الشعبي الذي يقول : «اللي يغفل عن عنزته تجيب له تيس»؟ هل تعرفون المثل في الكوت؟

يشعر يوسف بقبضة من الجليد تعتصر قلبه ، ويرّد :

- المثل معروف يا سيادة الرئيس .

ينفث همّام دخان سيجاره ، ويتأمل الدخان يملأ فضاء المكتب

الصغير ، ويقول :

- وماذا يجب ان يحدث لعنز كهذه؟ أخي يوسف! ما رأيك؟ ما جزاء العنز التي تخون مالكها؟

يصمت يوسف مرتبكا ويستمر همّام :

- وماذا يجب ان يحدث للتيس الشرير الخائن الذي يعتدي علي عنز يملكها غيره؟

يحاول يوسف ان يخفي إرتباكه بأخذ سيجار من الصندوق الضخم الذي يقبع على طاولة أمام همّام ، وهو يردّد :

- لو سمحت . . تسمح لي . . سيادة الرئيس؟

- تفضّل! تفضّل!

يتشاغل يوسف بقضم طرف السيجار ، ثم يتشاغل بإشعاله ، ويبدأ سعالاً طويلاً مفتعلاً ، ويقول :

- المعذرة ، سيادة الرئيس! منذ مدة طويلة لم ادخّن سيجاراً .

يتجاهل همّام الملاحظة ، ويقول :

- العنز قد تستحق شيئاً من الرحمة ، قد تستحق فرصة أخرى . العنز انثى ، وكل انثى ضعيفة ، ولكن ماذا عن التيس المجرم الذي خدعها ، وخدع مالكها؟ إلا ترى ، أخي يوسف ، أنه يستحق القتل؟

يعود يوسف إلى سيجاره وسعاله ولا يعلق . ويستمر الرئيس :

- ماذا سيحدث للعالم لو أُلغيت قوانين الملكية؟ لو كان من

حق أي إنسان ان يأخذ منك بيتك أو ابنتك . المعذرة! نسيت أنه ليس لديك اولاد أو بنات . المعذرة! ماذا ستفعل لو حاول أحد أن يأخذ منك المرأة التي تملكها ، زوجتك مثلاً ، ماذا ستفعل؟ إلا تقتل المجرم؟ أم انك لا تملك الشجاعة الكافية لإتخاذ هذا القرار؟ يبدأ الغضب الذي حاول يوسف ان يكتمه يتسرّب في كلماته البطيئة الهادئة :

– العفو ، سيادة الرئيس! العفو! المرأة ليست عنزاً . المرأة انسانة لها إرادة حرّة ومن حقها أن تختار الرجل الذي تريده . حقيقة الأمر ، سيادة الرئيس ، أنه حتّى العنز من حقها ان تختار التيس الذي يعجبها . الحب ، سيادة الرئيس ، كما يقول المثل الشعبي المعروف ، «بالكيْف مو بالسيْف» .

تنطلق ، بدون مقدّمات ، ضحكة همّام المجلجة ، ويهتز جسده كله ثم تهدأ الضحكة ، فجأة ، ويقف واضعاً يديه في جيبي المعطف ، ويقول :

– هذه فلسفة عجيبة . هذا موقف استغرب صدوره منك . لقد خيبت ظني فيك .

يقول يوسف بنبرة تحد ظاهرة :

– لكل إنسان رأيه ، سيادة الرئيس .

– صحيح! صحيح! ورأيي ان الخائن لا يستحق ان يعيش ، سواء كان تيساً أو عنزاً ، رجلاً أو أمرأة ، أو حتى دويلة خائنة .

يقف يوسف ، بدوره ، ويقول :

- لم أفهم المقصود ، سيادة الرئيس! ما دخل الدول في هذا الموضوع؟

- لا اتحدّث عن دول حقيقية . اتحدث عن دويلات تافهة حقيرة . نفخه واحدة مني وتطير الدويلة في الهواء .

يخرج يوسف من الفيلا الصغيرة مسكوناً بيقين راسخ ان سلامة دولته في خطر أكيد ، وان همّام بوسنين لن يكتفي بقتله ، بل سيقتل دولته معه .

***

عاد يوسف ، بعنف مفاجئ ، من المكتب الملوّث بالسيجار إلى سهاد التي كانت تغني :

اول شبابي هويتك قلت اكسبْ راحْ
وانت شبابك بده وأنى شبابي راحْ

التفت يوسف إلى مضيفه ، ثم إلى سهاد ، ثم عاد إلى مضيفه ، وشعر بالكلمات تخرج من فمه دون ان يعرف معناها :

- ماجد! ماجد! هل هذه شهرزاد؟ أقصد المرأة التي تغني هناك . ولكن شهرزاد ماتت . كانت معي في السيارة . كانت تودّعني . الم تكن معي في السيّارة؟ وأين المجرم همّام؟ أينه الآن؟ لماذا لا يطلبني

للمبارزة؟ سوف اترك له إختيار السلاح . الجبان القذر قاتل النساء! هل أخبرتك بقصتي مع شهرزاد؟ هل أخبرتك أنه عرف؟ هل قلت لك أنه هدّدني بالقتل؟ وماذا تفعل شهرزاد هنا؟ ماجد! اسمح لي ان أذهب . تأخرت . ستقلق ناهد عليّ .

***

حبيبتي ناهد ،

اكتب اليك هذه الرسالة مساء الأحد . وأنا أكره يوم الأحد . أكره صباحه واكره مساءه . وهذا الأحد ، بالذات ، يوم مشؤوم . أفقت في الضحى فوجدت نفسي نائماً في غرفة غير غرفتي ، اعاني كآبة شديدة ، وصداعاً قاتلاً . حاولت العودة إلى النوم ، ولم استطع . تدريجياً ، بدأت الذاكرة المخمورة تستعيد الأحداث . تذكرت أني في بيت صديقي السفير ماجد الربيعي ، واني اسرفت في الشراب ، واضطررت إلى النوم في منزل المضيف . لا أدري لماذا حدث ما حدث ، لماذا وصلت إلى مرحلة السكر . هل كانت المطربة هي السبب؟ تتساءلين : «أي مطربة؟» . الم تكوني معنا البارحة؟ حسناً! اسمعي القصة من جديد . قال لي ماجد أن هناك مفاجأة سارة تنتظرني . وكانت المفاجأة مطربة شابه ، جميلة شكلاً وصوتا ، من النهروان . وكانت تغني أغاني شهرزاد ، اعني اغاني ناظم الغزالي .

انت تعرفين مدى حبيّ لناظم الغزالي . عندما قررّت الكوت بعد التحرير ان تمنع الأغاني النهروانية ، ومنها أغاني ناظم الغزالي ، شعرت ان القرار ممعن في سخفه ، إلا أنّ تلك قضية أخرى . غنت سهاد – هل قلت لك ان اسمها سهاد؟ اسمها الحركي على اية حال؟ – وأعادني الغناء إلى الماضي . إلى سعدباد . إلى شهرزاد . إلى تلك الفترة القصيرة المجنونة . اللقاءات القصيرة الثلاثة المجنونة . الوداع القصير الدامع المجنون . الحوار المجنون مع الديكتاتور المجنون . الديكتاتور الذي فقد السيطرة على لسانه وهدّد بالقضاء على الكوت . لم تكن لديّ ذرّة من الشكّ أنه كان يعني ما يقول حرفياً : كان ينوي ان يقضي على الكوت . بمجرد خروجي من الڤيلا التي قابلته فيها ، ارسلت زميلاً في السفارة إلى الكوت احذر من الخطر القادم . هل صدقني أحد ، وقتها؟ حتى بعد ارسال زميل ثان ، وزميل ثالث ، بالتحذير نفسه ، هل صدّقني أحد؟ هل يصدّقني أحد ، الآن ، إذا قلت ان الديكتاتور المعتوه قرّر تدمير دولة انتقاماً من سفيرها الذي اخذ امرأة منه ، أو عنزاً كما سّماها؟ وايّنا المعتوه؟ الزعيم الذي يحطم دولة من اجل امرأة ، أو السفير الذي يعتقد أن سبب الغزو علاقته بصديقة الزعيم؟ الأغلب أننا ، هو وأنا ، من ضحايا الجنون النرجسي ، أو النرجسية الجنونية . ثم توالت الاحداث بسرعة جنونية . بعد لقائي بالديكتاتور بأيام معدودة قدمت ، يا حبيبتي ، إلى سعدباد . بعد وصولك بليلتين حدث ما حدث . كنا ، انت وأنا ، في الطريق إلى

منزل السفير الروسي لحضور حفل العشاء . وكنت بجانبي على المقعد الأمامي ، وكنا نتحدّث عن . . . ولكن انت تذكرين هذا كله ، يا حبيبتي ، اليس كذلك؟ تذكرين كل ما حدث ، اليس كذلك؟ أنا لا اكاد أذكر شيئاً عن الحادث . كنت اتكلم معك عندما فوجئت بصوت كالرعد ، وقفزت من مقعدي واظلمت الدنيا . أفقت في المستشفى الجامعي ، وكان اول انسان رأيته سيادة القائد المنصور (الخ . . الخ . . الخ . .) . قرر سيادته ، لاول مرة في تاريخه ، أن يزور سفيراً في مستشفى . كان الوحش ، يومها ، في أروع لحظاته ، أو ابشعها . كان مُمثّلاً اوسكارياً . منه - منه هو دون الخلق أجمعين - عرفت انك رحلت ، يا حبيبتي! تصورّي! في البداية ، لم أفهم . بعد أن فهمت لم أصدّق . ثم تفوق الوحش على نفسه . تحدّث ، بتأثر ، عن «الم الشعب النهرواني كله لوفاة اختنا الغالية السيدة الجليلة ناهد» . تصورّي! القاتل يسمي ضحيته «السيّدة الجليلة»! وعرض طائرته الخاصة - واحدة من طائراته! - لنقل «اختنا الغالية السيدة الجليلة ناهد» إلى الكوت . وكان لا بدّ ان اتجلد ، يا حبيبتي ، أمامه ، وأمام الناس . تصرفت بهدوء ، وشكرته بوقار . وفي اليوم التالي ، يا حبيبتي ، سافرت معك إلى الوطن . وعندما اودعناك تربة الوطن الحبيبة ، يا حبيبتي ، بكيت . بكيت بحرقة الأيتام ، وبحسرة الارامل ، وبمرارة الثكالى . ولكن الوحش لم يدع لي مجالاً لحزن طويل . بعد ان فارقت الحياة بأقل من ثلاث اسابيع بدأ الغزو

الهمجي ، اجتياح «دويلة الخيانة» التي تجرأ سفيرها على أخذ عنز من مالكها . أعدك يا حبيبتي اليوم ، كما وعدتك يوم ان غبت في الثرى الطاهر ان دمك لن يذهب هدراً . اعدك ان هذا الشيطان البشري سيدفع الثمن من دمه المُدنّس . اعدك! اعدك! اعدك!

زوجك المحب المخلص

يوسف

(من المفكرة الشخصية

ليوسف الفلكي)

***

على مدخل العمارة ، في شارع «فلهام» يستقبل يوسف ضيفه ويصحبه إلى الشقة . بمجردّ دخولهما يلتفت إلى الضيف ، ويسأله :

- هل وجدت صعوبة في العثور على العنوان؟

يبتسم اياد الخانكي ، اللواء سابقاً في الجيش النهرواني ، القوات الخاصة ، ويقول :

- سعادة السفير! لا تنس أني درست في «ساند هيرست» ، وأعرف لندن جيّداً .

- لماذا ، اذن ، اخترت الاقامة في الدانمرك؟

- عدد المعارضين النهروانيين في بريطانيا يُقدّر بالآلوف ، ربمّا

عشرات الآلاف ، وأنا افضّل العيش في هدوء .

- تعيش في هدوء ، وصاحبنا يطالب برأسك؟

- وبرأسك ، يا سعادة السفير . الرؤوس لا تسقط إلاّ في وقتها .

- صـدقت! صـدقت! أودّ ، اولاً ، ان اشكرك على قـدومك إلى لندن لرؤيتي . كنتَ على استعداد للسفر إلى كوبنهاجن لمقابلتك لولا انك . . .

يقاطعه اللواء بأدب :

- سعادة السفيرا تحركي أسهل من تحركك . أنا هنا ، وأنا تحت أمرك .

- لا بُدّ انك سمعت بما حدث في المحاولة الانقلابية الأخيرة . تخلىّ عنا اصدقاؤنا الأمريكيون ، والآن يريدون منا ، هم والبريطانيون ، أن نكتفي بالعمل السياسي .

- كنت أتابع ما حدث . الواقع ان الاخوة الضباط تحركوّا قبل أكتمال استعداداتهم . قد يكونون معذورين . ربما وصلتهم معلومات عن انكشاف الخطة . على اية حال ، تسرّعهم كان السبب الرئيسي في فشل المحاولة .

- تسرّعوا ودفعوا حياتهم ثمناً للتسرع . ما فات مات! لا يجدي الحديث عن الماضي . ماذا عن المستقبل سعادة اللواء؟ لا بُدّ من ترتيب محاولة جديدة .

يُخرج الضيف من جيب معطفه علبة سجائر مذهبة ، يخرج منها

سيجارة يشعلها بقداحّه مذهبة ، ويمتصّ بعمق ، ويزفر ، ويقول :

- سعادة السفير! فكرت في الأمر ، طويلاً ، قبل ان اجيء . كان لديّ شعور أن هذا هو الموضوع الذي تنوي بحثه معي . الواقع المؤسف هو أن الأوضاع غير مشجّعة ، والتحرك في الوقت الحاضر لن يكون في صالحنا .

- المعذرة ، يا أخي إياد ، انت تتكلم ، الآن ، كما يتكلّم الأمريكيون والبريطانيون .

- اتحدّث عن واقع أعرفه تمام المعرفة . لا توجد في النهروان ، في الوقت الحاضر ، مجموعة من الضباط مستعدة للتحرّك .

- هذا كلام غريب . كلّ التقارير التي تصلني تؤكد أن التذمّر في القوات المسّلحة وصل إلى حدّ الغليان .

- هناك تذمّر شديد في كل مكان ، ولكن نجاح أي انقلاب ، الآن ، أمر مستحيل .

- وما هو السبب؟

- سعادة السفير! السبب ان صاحبنا استطاع تقسيم القوات المسلحة إلى ثلاثة أقسام متنازعة ، كل قسم منها يرتبط به شخصياً ، وكل قسم منها يستعد للانقضاض على الآخر . هناك القوات الخاصة ، التي يقودها ابناء عشيرته ، والتي تحمي العاصمة والاماكن الحساسّة . وهناك الجيش النظامي ، وهو مبعثر ومشرذم في طول البلاد وعرضها على نحو يجعل من العسير على وحداته ان تقوم بتنسيق

حقيقي فيما بينها . تذكر المحاولة الأخيرة . لم يكن هناك تنسيق يذكر ، ووئدت الحركة في المهد . وهناك ، بعد ذلك ، الجيش الشعبي ، ومهمته الرئيسية مراقبة الجيش النظامي . في هذه الظروف كيف يمكن ان ينجح أي انقلاب؟

- وماذا عن القوات الخاصة؟ ماذا يحول بينها وبين القيام بإنقلاب؟

- سعادة السفير! لا يوجد في القوات الخاصة ضابط وأحد ، أو جندي واحد ، يريد زوال همّام . تذكر ان كل الضباط من عشيرته ، وكل الجنود من منطقته . وتذكر ان الجميع ، ضباطاً وجنوداً ، يتمتعون بمزايا لا يحلم بها كبار المسؤولين في الدولة . كنت ضابطاً في هذه القوات ، وأعرفها من الداخل . لست من اسرة همّام ، ولكن اسرتي كانت تسكن قرب اسرته . أعتقد أني كنت الضابط الوحيد الذي تخرج من كليه عسكرية حقيقية . الضباط الموجودون ، الآن ، من خريجي المدارس الإبتدائية والمتوسطة الذين اختارهم همّام ، بنفسه ، وادخلهم دورات عسكرية قصيرة . بقدرة قادر أصبح هؤلاء الفاشلون ضباطاً يحمل بعضهم رتبة الفريق . هل تتصور أن بين هؤلاء من يفكر جدّياً في التمرّد على همّام؟ عندما ينتهي همّام لن يجد هؤلاء لقمة العيش فضلاً عن المزايا الخيالية .

- وماذا عن الجيش الشعبي؟

يضحك اللواء ، ويقول :

- الجيش الشعبي؟! هذا الجيش، بأسره، مكوّن من خريجي السجون واللصوص والقتلة. الجيش الشعبي لا يفكّر إلا في بطنه، وآخر شيء يهّمه هو مصلحة البلاد.

- والجيش النظامي؟

- بعد المحاولة الأخيرة لن نعثر على عدد كاف من الضباط يقدم على محاولة جديدة.

- سعادة اللواء! اعذرني إذا قلت ان تحليلك يجعلني أشعر بإحباط شديد. كنت، دائماً، أعتقد أن أمل الخلاص الوحيد انقلاب تقوم به القوّات المُسّلحة.

- هذا مطلب عسير في الظروف الراهنة. الامل الواقعي الوحيد هو ان تقوم أمريكا بخلع الديكتاتور عن طريق اجتياح عسكري.

- هذا الخيار وارد، إلاّ أن أمريكا لا تريد أن تتبناه، ولا بريطانيا.

- هذا شيء مؤسف. كنت اتمنى ان اسمع منك أخباراً سارة عن تدخل خارجي يزيح الديكتاتور.

- صدّقني، أخي اياد، اني لم اكف، ولن اكفّ، عن الدفع في هذا الاتجاه، إلا انه لا توجد، الآن، إرادة سياسية تقف وراء التدخل العسكري، لا في أمريكا ولا في بريطانيا. الأمل ان يقع انقلاب يدفع الدولتين دفعاً إلى التدخّل.

- هذه حلقة مفرغة. التدّخل الخارجي في حاجة إلى انقلاب ناجح قبل ان يتمّ، والانقلاب الناجح في حاجة إلى تدخل خارجي

قبل ان يقع .

- سعادة اللواء! لا بُدّ ان تكون هناك وسيلة ، لا بد من البحث عن سبيل للتخلّص من الطاغية .

يخرج اللواء سيجارة ثانية ، ويشعلها ، ويمتص ، ويزفر ، ويتأمل الدخان صامتاً ، ثم يقول ببطء :

- هناك وسيلة واحدة ، لا يوجد غيرها .

-ما هي؟

- اغتيال الديكتاتور . إذا سقط همّام صريعاً يمكن ان يحدث أيّ شيء ، يمكن ان تندلع ثورة شعبية عفوية تقضي على النظام .

- انت تعرف ، كما أعرف ، أنه كانت هناك أكثر من ثلاثين محاولة لإغتيال همّام لم ينجح أيّ منها .

يصمت اللواء ، ثم يقول يضغط على كل كلمة :

- هذه المرة لن تفشل المحاولة .

يخفق قلب يوسف بعنف ، ويحاول ان يخفي اضطرابه ، ويسأل :

- ماذا تقصد؟ ماذا تعني؟ ما هو الشيء المختلف في هذه المحاولة؟

- سعادة السفير! أعرف أن بوسعي أن اثق فيك . أعرف انك ستحافظ على السّر محافظتك على حياتك وانك لن تفشيه حتى لحكومتك ، خصوصاً لحكومتك! هناك شابان داخل الحرس الرئاسي على استعداد لإغتيال الديكتاتور .

- هذا خبر سار جداً ، ولكن قل لي : كيف استطاع هذان الشابان

الدخول إلى المنطقة المُحرمة؟

- استطاعا الدخول لأنهما من أقارب الطاغية ، أعني من العشيرة نفسها ، إلا ان لكل منهما سبباً شخصياً يدفعه إلى الانتقام . احدهما فقد عمه ، والآخر فقد خاله ، في وجبه من وجبات التصفية الدورية .

- ولكنني أعرف ان هناك دراسة دقيقة تشترك فيها عدة أجهزة لكل مرشح قبل ان يُسمح بانضمامه إلى الحرس الرئاسي .

- هذا صحيح ، إلا انه لا يوجد نظام بشري معصوم من الخطأ . الدراسة الدقيقة التي تشير إليها اجريت ، بالفعل ، وانتهت إلى انه لا يوجد أي خطر من التحاق الشابين بالحرس الرئاسي . خطأ الديكتاتور القاتل ، أي ديكتاتور ، يحدث عندما يتغلب جنون العظمة على غريزة الحذر . أعتقد ان صاحبنا ارتكب هذا الخطأ القاتل . تصوّر ان الولاء لشخصه يطغى على أيّ ولاء آخر ، وان المزايا التي تنبع من الاقتراب منه كفيلة بمسح آثار الماضي . لا توجد ، الآن ، سوى مشكلة واحدة أرجو ان يكون بإمكانك حلّها .

- مشكلة؟! ما هي؟!

- يشترط الشابان ان يكون هناك ضمان لمستقبل اسرتيهما .

- تعني من الناحية المادية؟

- من الناحية الشخصية ، ومن الناحية المادية . السلامة الشخصية مسؤوليتي أنا . بمجرد وقوع المحاولة سوف ارتب لإنتقال الأسرتين إلى مكان آمن . يبقى الجانب المادي الذي يتطلب . .

يقاطعه يوسف :

- لا تدع هذا الجانب يشغلك . كم تريد؟

يشعل الضابط سيجارة ثالثة ، ويقول :

- نصف مليون جنيه استرليني .

على الفور ، بدون تفكير ، بدون تردد ، يقول يوسف :

- سوف يكون المبلغ تحت تصرّفك . متى تريده؟

- لا بُدّ ان يأتي على دفعات ، في تواريخ مختلفة ، إلى بنوك في اماكن مختلفة .

- أخبرني بالترتيبات التي تقترحها ، واترك الباقي لي .

***

حبيبتي ناهد ،

أعتقد انك اتخذت القرار الصحيح . نعم ، يا حبيبتي! اشعر ان القرار قرارك انت . عندما رأيت اللواء احسست بالخوف . كانت قسماته لا تختلف كثيراً عن قسمات السيد القائد المنصور (الخ . . . الخ . . . الخ . . .) . وعندما بدأ يثبّط عزمي شعرت أني امام عميل من عملاء النظام . وعندما لاحظت ان القداحة المذهبة التي يستخدمها نسخه من قداحّة الطاغية كدت ان أهرب من المكان . إلا انه عندما طلب المساعدة لتنفيذ مخطط الاغتيال تغيّر كل شيء .

شعرت انك امامي ، الحقيقة اني رأيتك في لحظة خاطفة ، تطلبين مني الموافقة على طلبه . ووافقت ، على الفور . وافقنا معاً . لا يوجد ، يا حبيبتي ، عاطفه أقوى من الحب سوى الانتقام . وسوف ينتقم الشابان . وسوف انتقم أنا . اعدك! أعدك! أعدك!

زوجك المحب المخلص

يوسف

(من المفكرة الشخصية

ليوسف الفلكي)

***

يدخل يوسف حدائق قصر «باكنجهّام» في تمام الساعة الرابعة . يشاهد الآلاف المحتشدة التي تبدو خليطاً متنافراً لا يجمع بين أفراده شيء . إلاّ أن يوسف يعرف ان اختيار المدعّوين والمدعّوات يتم بعناية فائقة . يطلب القصر من كل حكومة محلية اعداد قائمة بالمواطنين والمواطنات الذين ادوّا خدمات استثنائية تستحق التكريم . تجيء القوائم وتراجعها لجنة خاصة بدقة ، ويتم الاختيار ، ويتلقى المحظوظون والمحظوظات دعوة لتناول الشاي مع الملكة . يتنقل يوسف في الحدائق ويتوقف بين الحين والحين . يتحدّث مع مدرسة عجوز ، ثم ينتقل إلى ضابط في المطافئ ، ثم يمازح مدير مدرسة ابتدائية على وشك

التقاعد ، ثم ينهمك في حديث طويل مع ضابط حارب في معركة تحرير الكوت . في تمام الخامسة يسود صمت عميق ، ويعزف السلام الملكي ، وتدخل الملكة . لا ينتهي اعجاب يوسف بدقة الملكة في مواعيدها وكأنها تجسّد المقولة الانجليزية الشهيرة «الالتزام بالمواعيد ادب الملوك» . تبدأ الملكة التجوال في الحدائق ، وتقف بين الحين والحين ، لتتحدث مع بعض رعاياها الذين لم يكونوا يحلمون برؤية الملكة ، وجهاً لوجه ، فضلاً عن تناول الشاي معها .

يوسف ، الذي يحضر الحفلة للمرة السابعة ، يعرف الترتيبات . تنهي الملكة جولتها في السادسة تماماً ، وتتوجه إلى الخيمة الملكية التي تفتح قبل السادسة بعشر دقائق . هناك تنتحى الملكة جانباً تتناول فيه الشاي مع أفراد اسرتها ، بينما يحتلّ كبار المدعوين من الساسة والسفراء الجانب الآخر . في السادسة والنصف تماماً ، تنتقل الملكة إلى الجانب الآخر من الخيمة حيث تتبادل الحديث مع بعض المدعوين والمدعوات . في السابعة تماماً ، تغادر الملكة المكان .

علاقة يوسف الممتازة برئيس المراسم الملكية تضمن وجوده ضمن اولئك الذين تتحدّث الملكة معهم . سرعان ما يجد يوسف نفسه أمام الملكة التي ترتدي فستاناً طويلاً أزرق ، وتمسك بيدها بحقيبة ذات لون أزرق ، وترتدي قبعة زرقاء . يقدّمه رئيس المراسم الملكية إلى الملكة التي تصافحه مبتسمه ، وتقول :

- كيف حال صاحب السّمو؟

- بخير حال . وقد طلب مني ان ابلغ جلالتك تحياته وتمنياته .

- شكراً . أرجو ان تنقل إليه تحياتي . كانت زيارته قبل ثلاث سنوات ناجحة جداً ، وقد سعدنا - الأمير فيليب وأنا - باستضافته في قلعة «وندسور» .

- وسموّه ، يا صاحب الجلالة ، يحمل اجمل الذكريات عن تلك الزيارة .

تنتقل الملكة إلى ضيف آخر ، ويجد يوسف نفسه امام دوق ادنبره الذي يسأله .

- كيف حال الكوت هذه الأيام؟

- على خير حال ، يا صاحب السّمو .

- عندما زرتها ، آخر مرة ، كانت البيئة متضرّرة جداً من آثار الحرب . هل تحسنت الاوضاع؟

- لا تزال البيئة تعاني إلا انها تستردّ عافيتها يوماً بعد يوم .

يغادر يوسف القصر وهو يحمل ، كالعادة ، أعجاباً كبيراً بالتنظيم البريطاني الذي يدخل ثمانية الآف مدعو ومدعوة إلى القصر ، ويخرجهم ، دون حدوث ارتباك من أي نوع ، ودون ان يتعطل المرور دقيقة واحدة . وكالعادة ، يتساءل يوسف ، بينه وبين نفسه ، عما سيحدث من فوضى عارمة ، لو كانت هناك مناسبة كهذه ، في الكوت أو في أي دولة عربيّة أخرى .

***

يجلس يوسف في مكتبه بدار السكن في مواجهة الكاتب البريطاني ، ويقول :

- نيكولاس! أنا مُستعد لاسئلتك . تذكّر ان هذه هي المقابلة الثالثة والأخيرة . هات كل ما عندك .

يقلّب الكاتب أوراقاً في ملف على حجره ، ثم يقول :

- الرجل! الانسان! تحدثنا عن الزعيم ، عن الديكتاتور ، عن نصف الآله ، ولكننا لم نتحدث عن الرجل . ماذا عن الانسان المختبئ خلف الزعيم؟ ماذا عن اشيائه الصغيرة؟ ماذا عن عاداته اليومية؟ تعرف ما أقصد؟! ماذا عن مئات التفاصيل التي تكوّن في مجموعها رجلاً اسمه همّام بوسنّين؟

يفكر يوسف طويلاً ، ثم يقول :

- هذا سؤال هام ، سؤال هام جداً ، ولكنني أخشى أني لا أملك الاجابة عليه . صدّقني إذا قلت لك أنه لا يوجد حتى بين أقرب المقرّبين إلى همّام من يستطيع الاجابة على سؤال كهذا . لا أعرف ، مثلاً ، متى يستيقظ في الصباح ، هذا إذا كان ينام ليلاً . ولا أعرف ، مثلاً ، ماذا يأكل في أي وجبه من وجبات الطعام ، وان كنت أعرف أنه لا يأكل إلا قليلاً ولا يهتم كثيراً بالطعام . التفاصيل ، في عالم همّام ، أمور محفوفة بالسّرية التامة لأنها أمور تتعلق بأمنه الشخصي . ما يعرفه الآخرون عن همّام هو ما يريد همّام ان يعرفه الآخرون عنه . همّام هو رائد الحقوقيين ، كما تقول الدعاية ، والحقيقة أنه لم يدرس

سوى سنة واحدة في كلية الحقوق رسب في آخرها . همّام ، طبقاً لاعلامة ، هو نصير الفن والفنانين ، ولكنني اشك انه سمع سيمفونية واحدة في حياته ، أو رأى لوحة واحدة لڤان جوخ . هناك قرابة مئة كتاب وكتيب بقلمه ، والحقيقة أنه لم يكتب واحداً منها ، وهلم جرا .

- إذن كيف تستطيع أن تفهم شخصيته؟ كيف تستطيع ان تدخل داخلها؟

- هنا قد استطيع مساعدتك . فكرت ، عبر السنين ، كثيراً في هذه القضية وتوصلت إلى ان هناك اربعة مفاتيح لشخصيته ، اربعة مفاتيح متداخلة ومتفاعله ، نشطه طيلة الوقت ، يعطيك تمازجُها مفتاح الباب إلى عوالم همّام الخفية . هذه المفاتيح هي الفقر ، والكرامة ، والإرادة ، والمغامرة .

- أعتقد ان الأمر بحاجة إلى إيضاح .

- سأحاول أن اوضح . الحقيقة النفسية الكبرى في حياة همّام انه ولد في اسرة فقيرة جداً ، وان فقرها وضعه في قاع السّلم الاجتماعي . عانى الكثير الكثير بسبب الفقر . اضطرت امّه إلى الزواج بعمه بعد وفاة أبيه بسبب الفقر . واضطر إلى قبول معاملة فظه من عمه بسبب الفقر . وفرّ من المنزل ليعيش مع خاله بسبب الفقر . بمعنى او بآخر ، كان همّام يبحث عن ملاذ من الفقر وهو يبحث عن السلطة . القصور التي بناها فيما بعد لم يبنها ليتمتع بالسكن فيها ولكن لينتقم ، بأثر رجعي ، من الحرمان المرير الذي صبغ طفولته

وصباه . صدقني انه لم يضع قدمه في كثير منها .

- هذه نقطة هامة ، بالغة الأهمية .

- وهنا يجيء دور المفتاح الثاني . استطاع همّام ان يعيش دون ان يحطم الفقر نفسيته بأن طوّر شعوراً متضخماً جداً بالكرامة . كان مصرّاً ألاّ يسمح لأحد أن يمسّ كرامته رغم فقره . عندما كان في الخامسة عشرة قتل زميلاً بسبب ملاحظه اعتبرها ماسة بكرامته . وكاد أن يقتل زميلاً آخر لانه عيّره برثاثة ثيابه . هناك امثله لا تعد ولا تحصى لمواجهات عنيفه تورط فيها بسبب هجوم حقيقي أو موهوم ، على كرامته .

- هل يمكننا ان نفسّر حروبه المتعدده من هذا المنظور؟

- لا يوجد منظور آخر . كل ما يفعله همّام يفعله دفاعاً عن كرامته . ننتقل الآن إلى المفتاح الثالث . في طفولته تعلم همّام ان الارادة القوية تحقق المعجزات ، ولم ينس الدرس . اكتشف انك تستطيع بإرادتك القوية الهيمنة على اشخاص لا إرادة لهم ، أو بإرادة اضعف . الارادة القويّة ملمح اساسي في شخصية همّام ، قد يسمّيها البعض كاريزما ، وقد تكون لديه كاريزما منفصله عن الارادة ، إلا ان هذه مسألة نظرية . بدون ارادته الحديدية لم يكن بوسع همّام تحقيق أي شيء .

- ولكن قوة الارادة ، في حد ذاتها ، لا تكفي لتفسير وصوله إلى السلطة .

- صحيح . أنا استعمل كلمة الارادة بأوسع معانيها . الطموح والعناد والصبر والتخطيط عناصر تشكل في مجموعها الارادة القوية التي اتحدّث عنها . وهنا يجيء دور المفتاح الرابع في شخصية همّام . المغامرة . كل شيء حققه همّام ، بدون استثناء ، حققه عن طريق المغامرة . الذين يعجبون كيف استطاع شاب مغمور في الظلّ الوصول إلى قمة الهرم لا يدركون أنه تمكن من ذلك عن طريق سلسلة طويلة من المغامرات ، منها ما هو محسوب بعناية ومنها ما هو جنوني . كان يقدم عندما يجبن الآخرون ، ويعزم حين يتردد الباقون . لا بُدّ انك سمعت ان نابليون كان قبل أن يُعيّن قائداً يسأل : «هل هو رجل محظوظ؟» . حسناً! كان همام محظوظاً جداً ، إلى الآن ، في مغامراته . كان بإمكان أي واحدة من مغامراته ان تؤدي إلى قتله .

- وماذا عن همّام رجل العائلة ، الاب ، الزوج ، شيخ العشيرة ان شئت؟

- العائلة ، أو العشيرة ، من وجهة نظر همّام مجرد وسيلة نافعة من وسائل المحافظة على السلطة . شعوره نحو اقاربه خال من أي مودة ، بإستثناء امّه التي احبها بعمق . العائلة في عالم همّام مستودع لولاء يمكن ان يثق فيه ، إلى حد ما على اية حال . الولاء! الكلمة السحرية! قيمة أي فرد من أفراد عائلته أو عشيرته تنحصر في ولائه وإذا اهتز الولاء ، لأي سبب ، فقد الفرد أهميته ، وانتهت حياته . أعتقد ان لديك عشرات الحالات المعروفة .

- وماذا عن مشاعره الانسانية؟ إلا توجد لديه مشاعر كبقية الناس؟ ألا يغضب؟ إلا يضحك؟ ألا يحزن؟

- لا يوجد إنسان، حتى عندما يكون شريراً مثل همّام، بلا مشاعر إنسانيّة. ولكن تذكر ما قلته، قبل قليل، عن إرادته القوية. ارادة همّام، لا مشاعره، هي التي تحكم تصرفاته، وما دامت هذه هي الحالة، فهلّ يهم ان نعرف حقيقة مشاعره؟

- ولكن ماذا عنك انت؟ الم تره منفعلاً أو ضاحكاً أو باكياً؟

- في حالات نادرة جداً، رأيته حزيناً، بالفعل، أو سعيداً بالفعل. بخلاف هذه الحالات كان كل ما رأيته مشاهد تمثيلية تستحق الاعجاب. بوسع همّام، إذا شاء، ان يبدو مهموماً، أو سعيداً، أو باكياً، أو غاضباً، الذين لا يعرفونه يصدّقون ما يرونه بأعينهم ويجهلون أنه تمثيل بارع.

- وماذا عن علاقته بأخوانه، برفاق السلاح؟

يضحك يوسف، ويقول:

- ماذا تظنّ؟ لا تختلف عن علاقة ستالين بأعوانه. قيمة كل صديق تكمن في فائدته. عندما تنتهي الفائدة، ينتهي الصديق. القاعدة التي تحكم تعامله مع العائلة تحكم تعامله مع الاصدقاء.

- آسف، السّيد السفير، إذا اضطررت إلى اثارة هذه النقطة من جديد. قلت لي في المقابلة السابقة ان المرأة لا تلعب دوراً كبيراً في حياة همّام. إلاّ ان لديّ معلومات من مصادر عديدة تؤكد ان حياته

مليئة بالنساء والمغامرات النسائية ، وان لديه اماكن مخصصة لمقابلة العشيقات .

- نيكولاس! لا تصدّق كل ما تسمع! يعتقد همّام ان الصورة التي تلائم الرجل النهرواني «الماشو» تتطلب ان يكون فحلاً ، وان تكون الفحولة معروفة للجميع . الرجل «الماشو» لا يشبع من النساء ، امرأة جديدة كل ليلة ، وهو يغذي هذه السمعة . يصدق الشيء نفسه على الشراب ، الرجل «الماشو» هو الذي يشرب كمية هائلة من الخمر دون ان يفقد صوابه . كثيراً ما يضع همّام امامه زجاجة كاملة والويسكي دون ان يذوق قطرة منها . وكثيراً ما تكون بجانبه اربع أو خمس نساء جميلات دون ان يلمس واحدة منهن .

يبتسم الكاتب ، ويقول :

- هذا ، طبعاً ، باستثناء . . .

ينظر إليه يوسف معاتباً ، ويتمتم الكاتب :

- المعذرة! المعذرة! أعتقد انك أجبت على كل اسئلتي . شكراً جزيلاً .

- لا تنسى ان ترسل لي نسخة من الكتاب .

***

شؤون داخلية

شوهد رُوميو السلك الدبلوماسي ، يوسف الفلكي ، سفير الكوت في مطعم النهر بفندق «سافوى» ، وكانت معه أنيتا ساوثهول ، وزيرة الدولة في وزارة الداخلية . كان الاثنان يتبادلان حديثاً هامساً في ضوء الشموع الرومانسية . كالعادة ، رفضت وزارة الخارجية التعليق متذرّعة بانها «غير معنية بالشؤون الخاصة للدبلوماسيين الأجانب» .

(عمود اسرار «الوست إند»
صحيفة «نيوز اوف ذا
ورلد» اللندنية)

***

السفير الماجن العربيد

لا يزال مبعوث الدويلة في لندن يعيث في الارض فساداً ، فقد أقام ، في الاسبوع الماضي ، حفلة ماجنة حضرتها نسوة سيئات السمعة ، وتحدى مشاعر الجميع فأقامها في دار السكن الرسمية ، وهكذا يُبّدد النفط العربي على الفساد والإنحلال بدلاً من تجنيده

لتحرير فلسطين المغتصبة .

(من جريدة
«الصوت الصادق»
اللندنية)

***

يدخل يوسف المطعم ، ويرى جلين سايمونز في طاولة بقرب النافذة ويتجه إليه رأساً . يجلس أمامه ويقول :

- جلين! ما هذه المفاجأة السارة؟ انت تدعوني للعشاء؟ ما هذا الكرم المفاجىء؟ وأين؟ في نادي «بروكز» العريق الذي ينتظر الراغب في عضويته بضع سنين قبل ان يحظى بشرف الانتماء .

يبتسم جلين ، ويقول :

- يوسف! كفّ عن هذا الهراء! أنا أعرف انك عضو في النادي .

- أنسى ، دوماً ، أنكم ، جواسيس MI6 ، تعرفون كل شيء .

- اسمك مُسّجل في قائمة الأعضاء . لا يحتاج الأمر إلى جاسوسية . المفاجأة الحقيقية ليست العشاء .

- آه! مفاجأة أخرى؟! هذا موسم المفاجآت .

- ماذا تعني؟

- كانت هناك مفاجأ سعيدة اعدهّا صديق لي مؤخراً ، ولكن

النتيجة لم تكن سعيدة .

- أنا واثق ان مفاجأتي ستسعدك أكثر من مفاجأة صديقك .

- تكلم يا رجل! قتلني الفضول .

- حسناً! شهرزاد ، صديقتك ، موجودة الآن في لندن .

يشعر يوسف بالدماء تهجر عروقه إلى مكان لا يعرفه ، ويشعر بنوبة من الإغـــمـــاء توشك ان تأخـــذه إلى مكان مظلم ، ويتنفس بصعوبة . يلاحظ جلين ما أصاب ضيفه ، ويقول :

- آسف! كان لا بُدّ أن اخبرك بالتدريج . خذْ عدة انفاس عميقة ، واشرب كأس الماء . وسأروي لك القصة من بدايتها .

ينفذّ يوسف التعليمات ، ويقول .

- هات! أنا مستعد الآن .

- حسناً ! قبل شهر تقريباً وصلت شهرزاد إلى عمّان للتعالج في المدينة الطبيّة . كان العلاج ، على أية حال ، المُبرّر للسماح لها بمغادرة النهروان . امضت قرابة اسبوعين تجري فحوصات متنوعة في المدينة الطبية ، ثم خرجت . بمجرد خروجها اتصلت بسفارتنا في عمّان تطلب المساعدة في ايصالها إلى لندن ، وتطلب اللجوء في بريطانيا .

يقول يوسف :

- لم أفهم . لم أفهم شيئاً . كيف؟ كيف سمح لها الديكتاتور بالسفر؟ ولماذا تطلب اللجوء هنا؟ وماذا كان . . .

يقاطعه المضيف :

- اطلب عشاءك الآن ، وسوف اوافيك بالتفاصيل .

يكتفي يوسف ، الذي فقد شهيته فجأة ، بطلب صحن من السالمون المُدّخن وينظر ، مشدود الاعصاب ، إلى مضيفه الذي يقضي عدة دقائق في دراسة قائمة الطعام واستجواب الجرسون قبل ان يكمل طلبه ، ويقول بإنفعال :

- جلين! تكلم! تكلم! هل أخذت القطة لسانك؟

يبتسم مضيفه ، ويقول :

- حسناً! حسناً! ها أنذا أتكلّم . قلت لك أنها تلقّتْ إذناً بالسفر إلى عمّان للعلاج . لا يبدو أنها تشكو مرضاً حقيقياً . قد يكون العلاج مجرد عذر . عندما اتصلت بسفارتنا تطلب المجيء واللجوء طلب منها ان تنتظر بعض الوقت . بعد مناقشة الوضع مع الوزراء ، تقرّر السماح لها بالمجيء واللجوء . رتّبنا سفرها ، بهدوء ، ووصلت إلى لندن ، بهدوء ، وهي الآن في ضيافتنا .

- ومتى وصلت؟

- يوم الجمعة الماضي . قبل خمسة أيام . .

- ولماذا انتظرت خمسة أيام كاملة قبل ان تخبرني .؟

- يوسف! أحياناً ، انت تحيّرني . الا تعرف الاجراءات؟ لا بد من مقابلات عديدة معها ، لا بد من تحقيقات ، لا بُدّ من التشاور مع الزملاء في MI5 . هذه الاجراءات توشك ان تنتهي .

- ومتى اراها؟ هل يمكن ان اراها غداً؟

- تستطيع ان تراها في الاسبوع القادم ، في بداية الاسبوع . سوف احضرها بنفسي لك . ولكن قبل ان تراها ، إلا تريد ان تعرف الانطباعات التي تكوّنت لدينا؟

- هل يحتاج هذا إلى سؤال؟ بطبيعة الحال!

- بإختصار ، نحن نعتقد أنها قد تكون صادقه ، ولكن يجب ألاّ نهمل الاحتمال الأخر . بصراحة ، لم نستطع الوصول إلى رأي قاطع . سوف نسمح لها بالأقامة هنا ، ولكننا سنراقبها عن كثب ، وأرجو ان تساعدنا .

يضحك يوسف ، ويقول :

- مجاناً ، أو بمقابل؟

- يجب أن تدفع أنت لنا . الم نحضرها لك؟

- لم تحضروها أنتم . اتت بنفسها . والسؤال هو لماذا هربت من النهروان؟

- يوسف! لم أقل انها هربت . لو هربت ، فعلاً ، لكانت صدقيتها اكبر . الحقيقة أنها غادرت النهروان بموافقة رسمية . وانت تعرف من أين تجيء موافقة كهذه .

- من الرجل نفسه .

- من الرجل نفسه . والسؤال الطبيعي : لماذا سمح همّام لعشيقته بالسفر؟ تقول هي أنها اقنعته بمرضها مستعينه بتقارير طبيّة . احضرت معها صوراً من هذه التقارير .

- هل تبدو التقارير مقنعة؟

- مثل آراء المحامين ، مقنعة وغير مقنعة .

- أو مثل النتائج التي تصل إليها MI6 .

يضحك مضيفه ، ويقول :

- سوف نصل إلى نتيجة . لم العجلة؟

- دعنا من التقارير . لماذا ارادت مغادرة النهروان؟ هل جدّ شيء؟

- تقول أنها بدأت تخشى على حياتها .

- ولماذا بدأت ، فجأة ، تخشى على حياتها؟

يبتسم جلين ، الذي يبدو أنه متلذذ بكل جملة من الحوار ، ويقول :

- اسئلتك لا تختلف عن اسئلة محققينا . تقول أنه جد تطوران جعلاها تتوقع ان يحدث شيء لها . اولاً ، بدأت تتسلم رسائل من زوجها ، أعني زوجها السابق المنفي في روسيا . ثانياً ، تمكنت من معرفة المكان الذي تقيم فيه ابنتها ، وحاولت زيارتها ، إلاّ انها مُنعت من الدخول . تقول أنها واثقه ان همّام عرف بهذه المحاولة ، وأنه لن يغفر لها . وتقول أنه لو عرف برسائل زوجها لقتلها في الحال ، وقتله معها .

- اجهزة همّام تفتح كل رسالة بريدية تأتي من الخارج .

- تقول أنها كانت تتلقى الرسائل ، خلسة ، عن طريق أصدقاء زوجها العائدين من موسكو . على أية حال ، هي مقتنعة ، تماماً ، ان بقاءها في النهروان كان سيؤدّي إلى موتها .

- ولا شك انكم قررّتم ، اعني قررّتم في دواخل انفسكم ، أنها عميلة لهمّام ، وان العملية من اولها إلى آخرها مؤامرة لإدخالها بصفة شرعية إلى بريطانيا .

- كما سبق ان قلت لك ، لم نستبعد هذا الاحتمال ، ولم نستبعد احتمال صدقها . في الوقت الحاضر ، نعطي كل احتمال نسبة ٥٠٪ . بالمناسبة ، لم تكف عن السؤال عنك . ومع ذلك لا بُدّ ان احذرك أنه في ضوء . . .

يقاطعه يوسف :

- أرجوك! أرجوك! أنا لست غبياً إلى هذه الدرجة . الصورة ، أمامي ، واضحة كل الوضوح .

- هناك معلومة قد يسرّك ان تعرفها .

- ما هي؟

- تقول صاحبتنا ان الزعيم العظيم لا يتمتّع في الفراش بأيّ مواهب حقيقية! .

يشعر يوسف بوجهه يلتهب ، ويقول :

- عليك اللعنة! هل كان من اللازم توجيه اسئلة شخصية محرجة كهذه إلى سيّدة؟

ترتسم على وجه مضيفه ابتسامة كبيرة جديدة ، ويقول :

- اسمع ، يا صديقي! نحن لم نحضر شهرزاد إلى لندن من اجل عيونها ، ولا من اجل عيونك . هذه عشيقة عدو خطر من اعداء

بريطانيا . احضرناها لكي نحصل منها على أكبر قدر ممكن من المعلومات عن عدوّنا ، المعلومات السياسية والمعلومات الشخصية . على أية حال ، تستطيع ان تطمئن إلى ان منافسك لا يستطيع . . .

يقاطعه يوسف :

- جلين! اخرس! لا أريد أن أعرف .

- انت وشأنك! شهية طيّبة!

***

حبيبتي ناهد ،

لا بُدّ انك عرفت ان شهرزاد وصلت إلى لندن . ولا بُدّ انك عرفت ان لقاءنا كان مليئاً بالدموع والانفعالات الصاخبة . ولا بد انك تعرفين أنها ، الآن ، تقيم في شقتي في «كينزنجتون» . تغيّرت شهرزاد ، يا حبيبتي ، عن شهرزاد القديمة . الشعر الاسود الداكن الطويل أصبح قصيراً اشقر فاقعاً . والصدر - المعذرة ، يا حبيبتي! - تضخم بشكل غير طبيعي . وهناك آثار لا تُكاد ترى لعدة عمليات تجميلية في مواضع مختلفة من جسدها . لم أقل شيئاً عن هذه التغييرات ، ولم تقل هي شيئاً . أعرف ان كل ما تم كان بقرار تاريخي من السيد القائد المنصور (الخ . . الخ . . الخ . .) . يشير الزعيم بأصبعه ، فيتحوّل الشعر الاسود إلى أشقر . ويشير ، مرة أخرى ، فيتضاعف حجم الصدر ،

ويشـيـر مـرة ثالثـة ، ورابعـة . ومن يجـرؤ ان يخـبـر الطاغـيـة ان الشعرالأشقر الفاقع فوق بشرة سمراء مزيج لا يسيغه سوى ذوق مفرط في الهـمـجيـة؟ ومن يملك الشـجـاعـة ليـهـمـس في اذن الديكتـاتور ان جـمـال الصـدر لا يتـضـاعف إذا تضـاعف وزنه؟ لكنني لا اكـتـب هذه الرسالة ، يا حبيبتي ، لأجرح مشاعرك بهذه التفاصيل . اكتب لاطلب منك المساعدة . ماذا أفعل الآن؟ ماذا افعل بهذه المرأة؟ الاستخبارات البريطانية تحذّرني منها . الشركة المسؤولة عن حراستي تحذّرني منها . مصادري في الجالية النهروانية تؤكد ان أحداً في الجالية لا يصدق قصتها . عقلي ، يا حبيبتي ، يدعوني إلى الشّك . وقلبي ، يا حبيبتي ، مندفع نحو هذه المسكينة التي عانت بقرب الطاغية معاناة تستطيعين انت ، يا حبيبتي ، ان تتصوّريها ، انت التي رفضت ان تعيشي مع الطاغية في مدينة واحدة . ناهد! حبيبتي! ارجوك! لا تتخلّي عني وأنا أمام قرار حاسم . ارجوك ، يا حبيبتي ، ارجوك!

زوجك المحب المخلص

يوسف

(من المفكرة الشخصية

ليوسف الفلكي)

***

كعادته ، في اول يوم جمعة من كل شهر ، يجتمع يوسف بالملحقين التابعين للسفارة ، لمناقشة ما قد يكون لدى الملحقيات من

مشاكل ، وليكون على علم بما يدور في مملكته الصغيرة ، ولكي يجيب على اسئلة زملائه . يرحب يوسف بالحاضرين ، ثم يقول :

- لا يوجد تطور سياسي يستحق الذكر . العملية السلمية في الشرق الاوسط كلام كثير وفعل قليل . البريطانيون يؤكدون ان الحل في يد واشنطن ، وواشنطن تؤكد ان الحل في يد الفلسطينيين ، والفلسطينيون يقسمون انه ما دامت الحكومة المتطرفة الحالية تحكم اسرائيل فلن يكون هناك سلام . ومع ذلك ، فنحن وبقية اشقائنا العرب ، نثير القضية في كل اجتماع مع المسؤولين البريطانيين ونتلقى الاجابة التقليدية : «يصير خيرا!» . بقاء عملية سلمية صورية افضل من اختفائها ، والجهود العربية منصبّة على ابقاء هذه العملية في غرفة الإنعاش . فيما يتعلق بالنهروان ، لا بدّ انكم جميعاً سمعتم بأخبار المحاولة الانقلابية . غطتها الصحف والاذاعات ، هنا ، بالتفصيل . كان بالامكان ان تنجح ، لولا ان عوامل كثيرة ، خارجية وداخلية ، اجتمعت وافشلتها . أنا على ثقة انه سوف تكون هناك محاولات جديدة ، وان النظام القمعي في النهروان لن يطول بقاؤه . فيما يخص العلاقات الثنائية بيننا وبين بريطانيا الأمور تسير علي خير ما يرام . سوف يشهد الشهر القادم زيارة ثلاثة وزراء من الكوت ، واقامة معرضين تجاريين بريطانيين في الكوت . هل هناك أي اسئلة؟

يصمت الحاضرون ، ويشير يوسف إلى العقيد ابراهيم الجديعان ، الملحق العسكري :

- أخي ابراهيم! هل من جديد في الملحقية العسكرية؟

يرد الضابط :

- لا جديد ، سعادة السفير ، شحنات الاسلحة تسير بإنتظام ، والمتدربون يصلون حسب المواعيد المتفق عليها .

يتجه يوسف بنظره إلى الملحق الثقافي ، الدكتور سليمان الشبيب :

- دكتور سليمان! ما هي أخبار الطلاّب؟

- امور المبتعثين عادية ، سعادة السفير ، باستثناء مشكلة نعالجها ، الآن ، ونأمل ان تنتهي قريباً .

يتساءل يوسف :

- مشكلة؟!

- هناك طالب يدرس اللغة الانجليزية ، ويعيش مع عائلة بريطانية في ضواحي كامبردج . اتهمته العائلة بإغتصاب ابنتهم .

- كم عمرها؟

- في حدود العشرين . محامي الملحقية مقتنع ان الشكوى كيديه هدفها الإبتزاز . يؤكد المحامي انه لا يوجد أي دليل على تورط الطالب ، وان المحكمة ستقضي ببراءته في جلسة واحدة .

- ارجو ان تطلعْني على ما يتم ، أولاً بأول . ومحامي السفارة تحت تصرّفك .

- سوف اتصل بالمحامي إذا احتجت إليه . هناك موضوع آخر .

سبق ان وعدتَ الطلبة المبتعثين بحضور مهرجانهم السنوي ، وهم يتوقعون ان تجيء ، وان تلقي الكلمة الرئيسية .

- متى سيكون المهرجان؟ وأين؟

- في نهاية الشهر . في فندق «الكمبرلاند» . تبدأ الجلسة الافتتاحية في العاشرة صباحاً .

- أخبرهم أنه يسعدني ان اكون موجوداً ، وأن ألقي الكلمة .

يلتفت يوسف إلى الدكتورة أحلام المطرقي ، الملحقه الصحية :

- دكتوره! ما هي أخبار المرضى الاعزّاء؟

- يوجد ، حالياً ، حوالي خمسين مريضاً ومريضة . لا توجد حالات خطرة . الصيف بدأ ، سعادة السفير ، وبدأ زبائن الصيف يصلون .

يضحك الحاضرون ، ويقول يوسف :

- الامراض في الكوت تتمتع باخلاق راقية . لا تهاجم المواطنين إلا مع بداية العطلة الدراسية .

مع انتهاء الجزء الرسمي من الاجتماع ، ينتقل يوسف وزملاؤه إلى البوفيه ، ويبدأ الجزء الممتع : الاغتياب وترديد الاشاعات ورواية آخر النكت . يتكلم يوسف ويضحك ، ولكنه يشعر أنه يوجد ، هنا ، بجسده بينما تطوف افكاره بمكان آخر ، مخدع شهرزاد التي تركها نائمة هذا الصباح بعد ليلة لا تُصدّق .

***

يطالع يوسف ، بإستغراب ممزوج بالسخرية ، أحواض الأسماك المليئة بمختلف المخلوقات البحرية . ينتقل من حوض إلى حوض عبر الأقبية التي تمتزج فيها الاضواء القادمة من الأحواض بالأشباح القادمة من المساء . هذا ، في نظر يوسف ، مكان غريب للإحتفال السنويّ الذي يقيمه وزير الخارجية بمناسبة عيد ميلاد الملكة . إلاّ ان وزير الخارجية مولع بإختيار الاماكن الغريبة . في العام الماضي إختار للإحتفال مسرحاً بدائياً خارج لندن صُمّم ليكون نسخة من الأصل الذي بُني أيام شكسبير . وهذا العام ، أحواض الأسماك! يتذكر يوسف ، بشيء من النوستالجيا ، القصور العريقة الجميلة التي كانت وزير الخارجية السابق ، المحافظ فكراً وذوقاً ، يحتفل فيها بعيد ميلاد الملكة . «لكل زمانٍ دولةَ . . ورجالُ» . . واحواض اسماك! شهرزاد التي لم تر غير النهروان ودولتين عربيتين أو ثلاث ، تتأمل المكان ، كما تتأمّل كل شيء في لندن بفرحة طفولية مؤثرّة . تصرخ فجأة :

- حبيبي! انظر إلى هذا القرش الضخم . لماذا لا يأكل بقيّة الاسماك؟

يبتسم يوسف ، مفكراً في القرش الذي يأكل بقية الاسماك في سعدباد ، ويقول :

- هذا قرش بريطاني متّحضر . لا يأكل إلاّ بالشوكة والسكين .

تضحك شهرزاد ، وتقول :

- وانظر إلى هذه السلحفاة . لم أر أضخم منها في حياتي . هل

هي سلحفاة ، حقاً؟!

- هذه سلحفاة مصّفحة ، مصممة بمعرفة البحرية البريطانية .

يتمشى يوسف ، ممسكاً بيد شهرزاد ، في الأقبية حتى يصلا إلى الركن الذي يقف فيه وزير الخارجية ، مرتدياً بدلة «سبورت» ، بلا ربطة عنق (ذهبت أيام البدل الرسمية مع الوزير السابق) . حول الوزير يقف عدد صغير من الضيوف . يقترب يوسف ويصافحه الوزير بقدر غير معهود من الحرارة :

- آه! السيد السفير! كيف حالك؟

يوسف ، الذي يحرص علي ان تبقى علاقته بالوزير رسمية حرص الوزير نفسه ، يرّد :

- السيد سكرتير الدولة! كل شيء على ما يرام . بعض الخيول تربح ، وبعض الخيول تخسر .

- هذا قانون اساسي من قوانين الحياة . ينتصر البعض ويُهزم البعض .

- السيد سكرتير الدولة! اسمح لي ان اقّدم لك صديقه عزيزة من النهروان . شهرزاد!

يبتسم الوزير ابتسامة نادرة ، وينحنى انحناءه نادرة وهو يصافحها ، ويقول :

- أنا سعيد بمعرفتك . سمعت عنك الكثير . ولكني لم اتصوّر انك بهذا الجمال .

يترجم يوسف لشهر زاد ما قاله الوزير ، فتنفجر ضاحكة كطالبه في مدرسة ابتدائية اسعدتها ملاحظة من المعلّمة .

يلتفت يوسف إلى الوزير :

– شهرزاد لم تتقن الانجليزية بعد ، ولكنني واثق أنها ستتقنها في القريب .

– لديها استاذ ماهر . يسرني انكما تمكنتما من الحضور .

ينصرف الوزير إلى ضيف آخر ، ويواصل يوسف ورفيقته الدوران في الاقبية . يلحظ ، رغم الظلال ، أن شهرزاد تشدّ انتباه كل رجل يراها . يشعر بكثير من الزهو ، وقليل من التوجسّ . هل كتب عليه ان يصطدم بالساسة والدبلوماسيين في لندن . كما اصطدم بالطاغية في سعدباد ، من اجل هذه المرأة؟ ماذا يقول الفرنسيون؟ الأنثى القاتلة! هل شهرزاد انثى قاتلة؟!

***

هل مرت حقاً ، ثلاثة شهور ، منذ وصول شهرزاد إلى لندن؟ تسعون يوماً كاملاً؟! وكيف مرٌ الوقت بهذه السرعة؟ هل انتقلت عدوى الجنون الحلو منى إلى الثواني والساعات والأيام وعلمتها نشوة الطيران؟ وكيف استطاعت امرأة ، مجرد امرأة ، امرأة واحدة ، ان تغيّر كل شيء : الناس والاشياء والأزمنة والامكنة؟ كانت الحياة ، ذات يوم ، مع ناهد شبيهة بهذه الحياة . لا! لا! كانت ناهد امرأة أخرى تختلف ، تماماً ، عن شهرزاد ، وكانت الحياة معها مختلفة تماماً . هناك

سعادة بطعم ، وهنا سعادة بطعم ثان . ناهد! لماذا توقفت زيارات ناهد الاسبوعية؟ ولماذا توقفت أنا عن كتابة الرسائل اليها؟ من السهل الاجابة على السؤال الثاني . اشعر ان المرأة ، أي أمرأة ، مهما بلغ صفحها وتفهمها وتسامحها - حتى لو كانت هذه المرأة ناهد العظيمة - لن تتحمل رسائل لا تتضمن شيئاً سوى الحديث عن امرأة ثانية . أما السؤال الأول فلا استطيع ان اجيب عليه . ناهد وحدها تملك الحقيقة ، أما أنا فليس لديّ سوى الظن . اظن أنها تخجل من زيارة رجل ينام بقرب امرأة غيرها . كانت ناهد انسانة مُهذبة شديدة الحياء . أعتقد انها قررّت بعد ان التقيتُ بامرأة احبّها وتحبّني ان تفسح لنا المجال . ماذا قال قيصر؟ «اتيت ، ورأيت ، وقهرت!» . وماذا قالت ناهد ؟ «اتيت ، ورأيت ، وصفحت ، وذهبت» . كانت ناهد امرأة استثنائية في حياتها ، وهي امرأة استثنائية بعد رحيلها . كانت ، دوماً ، بجانبي ترعى وتحنو وتضمّد . كانت ، دوماً ، تتبعني راضية إلى حيث يتجه بي مصيري . ناهد الخالدة! ناهد التي عانقتني يوم اكتشفت اني لست قادراً على اعطائها الطفل الذي طالما حلمت به وقالت «أنت زوجي . وانت طفلي!» . ناهد التي قتلها الطاغية انتقاماً مني . ناهد تقرّر ، الآن ، ان تتركني في حماية امرأة أخرى . ناهد تعرف انني كنت ، ولا أزال ، احتاج إلى حماية امرأة . قبل ناهد ، كان هناك كثير من النساء . وبعد غياب ناهد ، كان هناك عدد اكبر من النساء . ولكن لم تكن هناك امرأة قبلها ، ولم تكن هناك

أمرأة بعدها . ثم جاءت شهرزاد . ووجدت نفسي ، للمرة الأولى بعد غياب ناهد ، في حماية امرأة . يا للمنطق العجيب! ليس المفترض ان يحمي الرجل القوي المرأة الضعيفة؟ لا! الأمور في حياتي لا تجري على هذا النحو . المرأة ، وحدها ، هي القادرة على ملء الحياة حتى تكاد تنفجر . المرأة ، وحدها ، هي القادرة على تحويل العمل اليومي القاتل إلى متعة تفضي إلى متعة . المرأة ، وحدها ، هي القادرة على ان تداوي ، بصداقتها ، الف جرح من سكاكين الف عدو . المرأة ، وحدها ، هي التي تجعل كل دقيقة ملحمة من ملاحم الفروسية العاشقة . وعندما تغيب المرأة يصبح البديل الوحيد النساء . تأخذ من هذه شيئاً ، ومن تلك شيئاً ، ومن الثالثة شيئاً ، ومن الرابعة شيئاً . من هذه الذكاء ، ومن تلك الجمال ، ومن الثالثة التسلية ، ومن الرابعة اللذة . إلا ان البديل يبقى بديلاً ناقصاً ، كما يقول الاقتصاديون . لا بديل للمرأة إلا المرأة . ناهد ، التي عرفتني كما لم يعرفني احد ، كانت تعرف هذه الحقيقة . ناهد تعرف اني لا ابحث عن النساء إلا عندما افتقد المرأة وناهد تعرف ان وجود أمرأة بقربي يغني عن النساء . ناهد تعرف ، بغريزتها التي لا تخطئ ، اني اعرف السعادة ، الآن ، لأول مرة منذ رحيلها . ولا شك ان ناهد تعرف اني قررت ان ارتبط بشهرزاد ، قررت ان اتزوجها ، وان اتقاعد . تعرف انني قررت ان اعيش مع شهرزاد في مكان بعيد بعيد ، بقرب بحيرة ، أو بقرب بحر ، أو بقرب نهر . بعيداً بعيداً عن الصحراء! لم أعد اتحمّل الصحراء .

عاصفة الصحراء! ثعلب الصحراء! معارك الصحراء! أريد مكاناً رطباً بارداً هادئاً مسالماً ، اعيش فيه مع شهرزاد بعيداً عن الضجيج . بعيداً عن حفلات الاستقبال . بعيداً عن وزارات الخارجية . بعيداً عن الكلمات الممجوجة المكرّرة . بعيداً عن العبارات الخشبية الميّتة . عن المؤامرات الكبيرة ، ضد دول بأكملها ، والمؤآمرات الصغيرة ، ضد فرد واحد . آه! المؤامرات الصغيرة! من يصدّق ان هذا العدد الهائل من المؤامرات يدور داخل سفارة صغيرة؟ لو عرف الدارسون في المعاهد الدبلوماسية اسرار السفارات لاختاروا مهناً اخرى . مندوب هذا الجهاز الذي يُوفد إلى السفارة لا لشيء إلا لمراقبة السفير . ومندوب ذاك الجهاز الذي يرسل إلى السفارة لا لشيء إلا لمراقبة السفير ، بالاضافة إلى مراقبة مندوب الجهاز الأول . والاثنان يؤدّيان التحية للسفير ، ثم يكتبان التقارير المليئة بالسم عن السفير . ثم جيوش الجواسيس الهواة! عندما جاءني مدير الارشيف يخبرني ان زميلاً دبلوماسياً كتب عني لحكومتي خطاباً مليئاً بالافتراءات القذرة ، خطاباً شاء سوء حظه ان يتمزق ظرفه وان يطلع عليه مدير الارشيف ، ضحكت وطلبت منه ان يعيد إغلاق الظرف وان يرسله مع البريد السياسي . اخبرت مدير الارشيف ، الذي استمع اليّ مفتوح الفم من الدهشة ، ان هناك ثلاثة زملاء دبلوماسيين ، من الجواسيس الهواة ، يكتبون عني التقارير بإنتظام يدعو إلى الاعجاب . وجميع هذه التقارير تعود إليّ ، وأقرؤها باستمتاع بالغ . منذ قدوم شهرزاد ، نشط الجواسيس ، المحترفون

والهواة . هناك من ادّعى انني انزلتها معي في دار السكن ، عشيقة صاحب السعادة الرسمية! وهناك من ادعى انني اهملت عملي في السفارة بسببها . وهناك من ادّعى اني اطلعها على اسرار تخل بأمن الدولة . اوه! القائمة تطول! يبدو لي ان في أعماق كل دبلوماسي جاسوساً حبيساً يتوق إلى الانطلاق . احياناً ، يبدو لي ان في أعماق كل إنسان جاسوساً يود ان ينفلت من قيده . لوجُمعتْ تقارير الجواسيس الهواة لتبين انها تفوق ، اضعافاً مضاعفة ، تقارير الجواسيس المحترفين . حسناً! لو عرف السادة الجواسيس اني قدمّتُ استقالتي بمجرد وصول شهرزاد لخفّتْ حماستهم بعض الشيء . ولو عرفوا ان الاستقالة رُفضت ، على الفور وبإصرار ، لزادت حماستهم بعض الشيء . القرار ، الآن ، في يد شهرزاد وحدها . بمجرد ان توافق على الزواج ، سأحزم امتعتي وارحل ، واترك السفارة في رعاية الفضولي الاكبر عمران البريطم ، الذي سيتلقّى ، على الفور ، نصيبه من التقارير المسمومة . واكون ، وقتها ، مع شهرزاد ، في مكان رطب بعيد . تغنّي لي كل يوم . كما غنت لي ، كل يوم ، خلال الشهور الثلاثة الماضية . «كل يوم ، يا يوسف ، كل يوم؟!» . «كل يوم ، يا عيوني ، كل يوم!!» . هل كانت شهرزاد تغني للطاغية؟ يجب ان أنفي الفكرة من رأسي ، على الفور ، في الحال! اتخذت قراراً حاسماً سوف التزم به ما حييت : ألاّ اسأل شهرزاد سؤالاً واحداً عن حياتها مع الطاغية . وشهرزاد ، بذكاء المرأة الفطري ، اتخذت ، على ما يبدو ،

القـرار نفسـه . لـم تقل كلمـة واحـدة عن حـيـاتهـا مع الطاغـيـة . لـم تتـحـدث عنه ، قط . لـم تذكـر اسـمـه ، قط . بقـرار تاريخيّ مـشـتـرك أسـقطنا الطاغـيـة المهـووس بالتـاريخ من تاريخ حبّنا . ولماذا نتكلم عن الطاغية؟ يكفي ان تغني لي . «يوسف! سوف تكرهني لو حدث شيء لصوتي . انت لا تحبّني إلا لصوتي» . «حـبيبتي! صوتك لا يسكن حنجرتك وحـدها . صـوتك انـت . انت صوتك» . تعـرف شـهـرزاد ، بفـراسـة الفنانة الاصيلة ، مدى القـوة التي تستطيع ان تمارسـهـا عليّ بصوتها . بوسعها ان تجعلني اضحك من الأعماق وهي تغني :

احـــــبـك . . . واحـبّ كـل مـن يـحـــــبّـكْ!
واحب الورد جــوري . . . عــمنه بلون خــدّكْ

وتستطيع ان تجعلني ابكي بحرقه وهي تنشد :

رضـرضْ جـمـيع اعـضـايْ . . مـرّخص عليـها
بَسْ لا تمّر بالروح . . كـــيف انت فـــيـــهـــا

وتستطيع ان تجعلني أرقص وهي تهزج :

خـــايف عليـــهـــا . . تَلفـــان بيـــهـــا
شـــامـــة ودّقـــه بالحنك . . من يشـــتـــريهـــا؟

قبل شهرزاد ، لم اعشق سوى صوتين : صوت أم كلثوم ، وصوت فـيـروز . في صـوت ام كلثوم اسـمع النيل يهـدر عـبـر القـرون . اسـمع اصـوات الفـلاحين والفـلاحـات يجـمـعـون القطن . اسـمع اصـوات

المعذبيّن في الارض . اسمع حنين من لا يملك إلى ما لا يملك . اسمع عويل الفراق . اسمع عذاب الحب من جانب واحد . اسمع سياط الشهوة التي لا ترحم . وفي صوت فيروز اسمع صفير العصافير وهديل الحمام . اسمع خطى الصبايا المراهقات يرقصن الدبكة . اسمع ضحكات سهرة بريئة جمعت حبيبين . اسمع همسات قمر يتلصص بين أشجار الصنوبر . اسمع كل اساطير الضيعة وحكايات جدتي العجوز . لا احب صوتاً بلا شخصية . مهما كان جميلاً . في صوت ام كلثوم شخصية مصر النبيلة الصابرة . وفي صوت فيروز شخصية جبل لبنان العاشق الراقص . وصوت شهرزاد صوت النهروان . ترى هل هذا هو السبب الذي دفع الطاغية إلى تملكها؟ الرغبة في ان يستبيح صوت النهروان كما استباح النهروان نفسها؟ لا! لن استرسل مع هذه الفكرة . سأعود إلى شهرزاد . ما هو سر شهرزاد الذي تخفيه حتّى عني؟ شهرزاد ، السعيدة كضفيرة طائشة ، لماذا تبرق في عيونها ، في لحظات نادرة ، دموع تختفي بمجرد ان تظهر؟ وما معنى الجملة الغريبة التي اسمعها منها بين الحين والحين : «حبيبي! اقتلني قبل ان اقتلك!» . عندما طلبت منها ان تتزوجني ، لمعت الدموع ، وقالت «عمري! انت تريد ان تتزوجني وانا اريد ان . . .» . «أن ماذا ، يا حبيبتي؟» «لا شيء . لا شيء!» . «حبيبتي ، ماذا بك؟» . «كل شيء ماكو!» . حسناً! القرار صعب وهي بحاجة إلى وقت قبل ان تستطيع ان تتخذه . أفهمُ هذا . وعندما تتخذ القرار ، سوف يبدأ

عمري الجديد ، عمري الذي لا تمزّقه ، كل دقيقة ، هاتان الكلمتان المفترستان : «سعادة السفير!» .

(من المفكرة الشخصية
ليوسف الفلكي)

***

يسأل يوسف نفسه ، وهو منطلق بالسيارة إلى «هامستيد» والساعة تقترب من العاشرة مساءً ، عن السبب الذي دفع ديڤيد ليڤين إلى ان يطلب رؤيته ، فوراً ، في هذه الساعة المتأخرة . بدأت علاقته بديڤيد منذ ثلاثة سنوات ، وتوثقت مع تكرر اللقاءات . ديڤيد ، صديق رئيس الوزراء الحميم ، يهودي معتدل . وقد تعلّم يوسف ، من التجارب الطويلة ، ان اليهود المعتدلين أقل خطراً من المسيحيين الصهاينة . ميزة ديڤيد أنه لا يخفي مشاعره الحقيقية عن أحد ، ويتكلم مع العرب كما يتكلم مع الاسرائيليين ، ويحلم ، فعلاً ، بسلام يسمح بالتعايش بين الجانبين .

يعانقه ديڤيد ، كالعادة ، ويقوده إلى ركن من اركان الصالون الواسع ، ويقول :

- يوسف! أعتذر عن ازعاجك في هذا الوقت المتأخّر . عندما تسمع ما لديّ تعرف أنه لم يكن امامي خيار .

- ديڤيد! سوف استمع بإهتمام ولكن تذكر القول المأثور : «عندما تضايقك الرسالة ، إقتلْ حاملها!» .

يضحك ديڤيد من الأعماق :

- لا تمزح مع يهودي على هذا النحو . موضوع القتل عند اليهود حساسٌ جداً . على أية حال ، أعتقد انك بحاجة إلى شراب . الخبر الذي أحمله يصعب سماعه دون شراب .

قبل ان يجيب يوسف ، يذهب مضيفه إلى دولاب يفتحه ويخرج منه زجاجة من النبيذ الأحمر ، يحضرها ويضعها على الطاولة مع قدح واحد . يملأ القدح ويعطيه يوسف الذي يرشف رشفتين ويقول :

- حسناً! هيأتني نفسياً ، هات ما عندك .

- يوسف! سأدخل في لب القضيّة . انت ، بلا شك ، تعرف جهاز «الموساد» . . .

يقاطعة يوسف :

- هل تريد ، الآن ، تجنيدي «للموساد»؟

يبتسم ديفيد ، ويقول :

- في المستقبل ، ربّما ، امّا الآن فلديّ رسالة هامة لك من «الموساد» .

- رسالة لي من «الموساد»؟! الجهاز يعرف ، كما تعرف أنت ، كما يعرف كل الناس ، أني من أيتام العهد الناصري وان نظرتي إلى اسرائيل . . .

يقاطعه ديفيد :

- يوسف! ارجوك! استمع ولا تقاطعني! جهاز «الموساد» لديه عيون في قلب الرئاسة في سعدباد . في قلبها! وصلت إلى الجهاز

معلومات مؤكدّة تقول ان همّام بوسنّين ، على إثر المحاولة الانقلابية الأخيرة ، التي لعَبتَ فيها دور المايسترو ، قررّ أنه لن يشعر بالأمان ما دمت حيّاً . قررّ ان الطريق الوحيدة المضمونة لاغتيالك تمر عبر قلبك . شهرزاد!

ترتجف يد يوسف وهي تحمل الكأس إلى فمه ، ويتمتم :

- لم أكن اعرف أن . . .

يقاطعه المضيف مُجدّداً :

- دبّر مسرحية غبيّة لا أدري كيف انطلت على أجهزتنا أو عليك . سمح لها بمغادرة سعدباد إلى عمّان للعلاج ، ومن هناك اتصلت بسفارتنا ، وتعرف بقية القصة . ما لا تعرفه ، ما يود جهاز «الموساد» ان تعرفه ، أن همّام أخبرها أنها أمام خيارين لا ثالث لهما : إما ان تقتلك هي ، أو يقتل هو ابنتها . يوسف! هل تسمعني؟

ترتفع يد يوسف بالكأس مرة أخرى ، ويقول :

- اسمعك! اسمعك بوضوح! وأعرف أن همّام قادر على قتل الابنة دون ان يطرف جفنه .

- حسناً! انت ، اذن ، تدرك ان حياتك في خطر . في خطر محقق داهم! يمكن ان تقتل في أي لحظة .

يملأ يوسف القدح ، ويقول :

- ديفيد! هل أخبرك اصدقاؤك في «الموساد» كيف ستنفذ شهرزاد مهمّة إغتيالي؟

- عزيزي يوسف! انت لست صبّياً غِراً . انت تعرف هذه اللعبة . الم تسمع عن سموم يستنشقها المرء ، ويموت؟ الم تسمع عن سوائل يشربها المرء ، ويموت؟ الم تسمع عن «السايناياد»؟

- «السايناياد»؟! هل هذه قصة بوليسية؟

- مات كثير من اعداء همّام «بالسايناياد» . هذه حقيقة لا اظنك تجهلها . ولا اظنك تجهل ان الحياة قد تحتوي على مخاطر لا تقل عن مخاطر القصص البوليسية .

- ديڤيد! لماذا يقدم جهاز «الموساد» لي هذه الخدمة؟ «لا يوجد عشاء مجاني» ، كما يقال ، ما هو الثمن الذي يريدونه ، بالمقابل؟

يبتسم ديڤيد ، ويقول :

- لا يريدون شيئاً سوى ان تخفّف من موقفك المتطرف من اسرائيل .

يبتسم ، يوسف ، بدوره ، ويقول :

- فاوست والشيطان! يا لها من صفقة!

يودع ديڤيد ضيفه إلى السيارة ، ويعانقه ، مرة ثانية ، ويهمس :

- ارجوك! ارجوك! كن حذراً!

يضحك يوسف ، ويردّ :

- سأحاول ، يا ابن العم! ، سأحاول .

***

حبيبتي ناهد ،

كنت قد قررت إلا اكتب لك المزيد من الرسائل . والتزمتُ بالقرار طيلة المدة الماضية . إلا انني ، الآن ، في حاجة إلى مساعدتك . في حاجة ماسة! لا بُدّ انك عرفت ما دار بيني وبين ديڤيد . ماذا أفعل الآن ، يا حبيبتي؟ اطرد شهرزاد من حياتي ، واطرد معها آخر أمل لي في السعادة؟ ابقى بجانبها ، واموت قتيلاً؟ ماذا أفعل ، يا حبيبتي؟ انت تعرفين أني احب هذه المرأة . انت تعرفين اني عاجز عن اتخاذ أي قرار . ماذا أفعل؟ ساعديني! ارجوك! ارجوك! ارجوك!

زوجك المحب المخلص

يوسف

(من المفكرة الشخصية

ليوسف الفلكي)

***

« . . . ينشأ تسمم حاد من ابتلاع ملح «السايانايد» ، اعراضه الدوار والغثيان والترّنح والإغماء . وقد تحدث الوفاة ، مباشرة ، بعد تناول كميّة لا تزيد عن ٣٠٠ ملجم من هذا الملح . . .» .

«الانسكلوبيديا البريطانية»

***

يوسف ، الذي تعوّد خلال الشهور الماضية ان يقضى عطلة نهاية الاسبوع كلها مع شهرزاد ، في شقة «كينزنجتون» يتابع ، بشغف ، مباراة يبّثها التيلفيزيون يشارك فيها ناديه المفضّل «مانشستر يونايتد» ، بينما تعكف شهرزاد على قراءة مجلة عربية نسائية . يلتفت يوسف إلى شهرزاد :

- حبيبتي! اشعر بالظمأ . لماذا لا تحضرين لي كأساً من البيرة؟ واحضري لنفسك كأساً .

تبتسم شهرزاد . تتجه إلى المطبخ . تفتح باب الثلاجة . تخرج زجاجتي بيرة . تفرغ محتوياتهما في قدحين طويلين . تتردّد قليلاً . تنزع حلية ذهبية من عنقها . على هيئة قلب . تضغط على زر صغير . يُفتح القلب . تأخذ من داخله اربعة أقراص مدورة بيضاء . تتردد قليلاً . تضع في كل كأس قرصين . تسيل الدموع من عينها . تمسح الدموع . ترقب الأقراص تذوب في السائل الأصفر . تغنّي بصوت لا يكاد يُسمع :

ودعّتها . . . والدمع منها يسيلْ
والجسم مثل الغصن كما يميلْ

تضع الكأسين على صينية . تتجه نحو الصالون . تقف عند باب المطبخ . تمسح الدموع من عينيها . تعود إلى الصالون . تنظر إلى يوسف الذي يتابع المباراة بتركيز كامل . تقف مكانها . تسيل دموع جديدة لا يراها يوسف . فجأة ، يقطع التيليفزيون بث المباراة . ويعلن عن خبر

عاجل هام ، وصل للتو من بغداد :

- «نقلت وكالات الانباء من سعدباد أن ديكتاتور النهروان همّام بوسنين لقي مصرعة قبل قليل بعد ان أطلق عليه حارسان من قوة حرسه الشخصي النار . وذكر راديو سعدباد . . .»

يقف يوسف . يصرخ كالمجنون :

- مات الطاغية! مات همّام! مات المجرم! مات القاتل!

تسقط الصينية من يد شهرزاد . ينكسر الكأسان . تنداح المحتويات على البلاط . يصرخ يوسف من جديد :

- شهرزاد! ألم تسمعي؟ مات الطاغية! مات الطاغية!

تقترب شهرزاد . يضمّها بعنف . تبكي ، وتبكي . يضمّها بعنف ، يقول :

- شهرزاد! ذهب المجرم وانتهى عهد البكاء . لا بكاء بعد اليوم .

تمسح شهرزاد الدموع . تلتفت اليه مبتسمة . تَضمه وهي تهمس في اذنه :

قلُ لي يا حلو منين الله جابكْ؟!

يضحكان معاً ، ويضحكان ، ويضحكان .

***

من مؤلّفات الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي

الصادرة عن المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر

● ورود على ضفائر سناء	(شعر)
● عقد من الحجارة	(شعر)
● سحيم	(شعر)
● الإلمام بغزل الفقهاء الاعلام	(مختارات)
● قراءة في وجه لندن	(شعر)
● التنمية الأسئلة الكبرى	(بحث)
● الأسطورة (دايانا)	(مقالة)
● الغزو الثقافي ومقالات أخرى	(مقالات)
● صوت من الخليج	(مقالات)
● حياة في الإدارة	(سيرة)
● مع ناجي ومعها	(نقد)
● أبو شلاخ البرمائي	(رواية)
● الأشج	(شعر)
● امريكا والسعودية	(سياسة)
● بيت	(مختارات شعرية)
● سلمى	(رواية)
● الخليج يتحدث شعراً ونثراً	(نقد)
● سعادة السفير	(رواية)

HIS EXCELLENCY THE AMBSSADOR

رواية
NOVEL

سعادة السفير

.... هل يصدّقني أحد ، الآن ، إذا قلت إنّ الدكتاتور المعتوه قرّر تدمير دولة انتقاماً من سفيرها ، الّذي أخذ امرأة منه ، أو عنزاً كما سمّاها ؟ وأيّهما المعتوه ، الزعيم الّذي يحطّم دولة من أجل امرأة ، أم السفير الّذي يعتقد أنّ سبب الغزو علاقته بصديقة الزعيم ؟ ....

ISBN 9953-36-036-7

